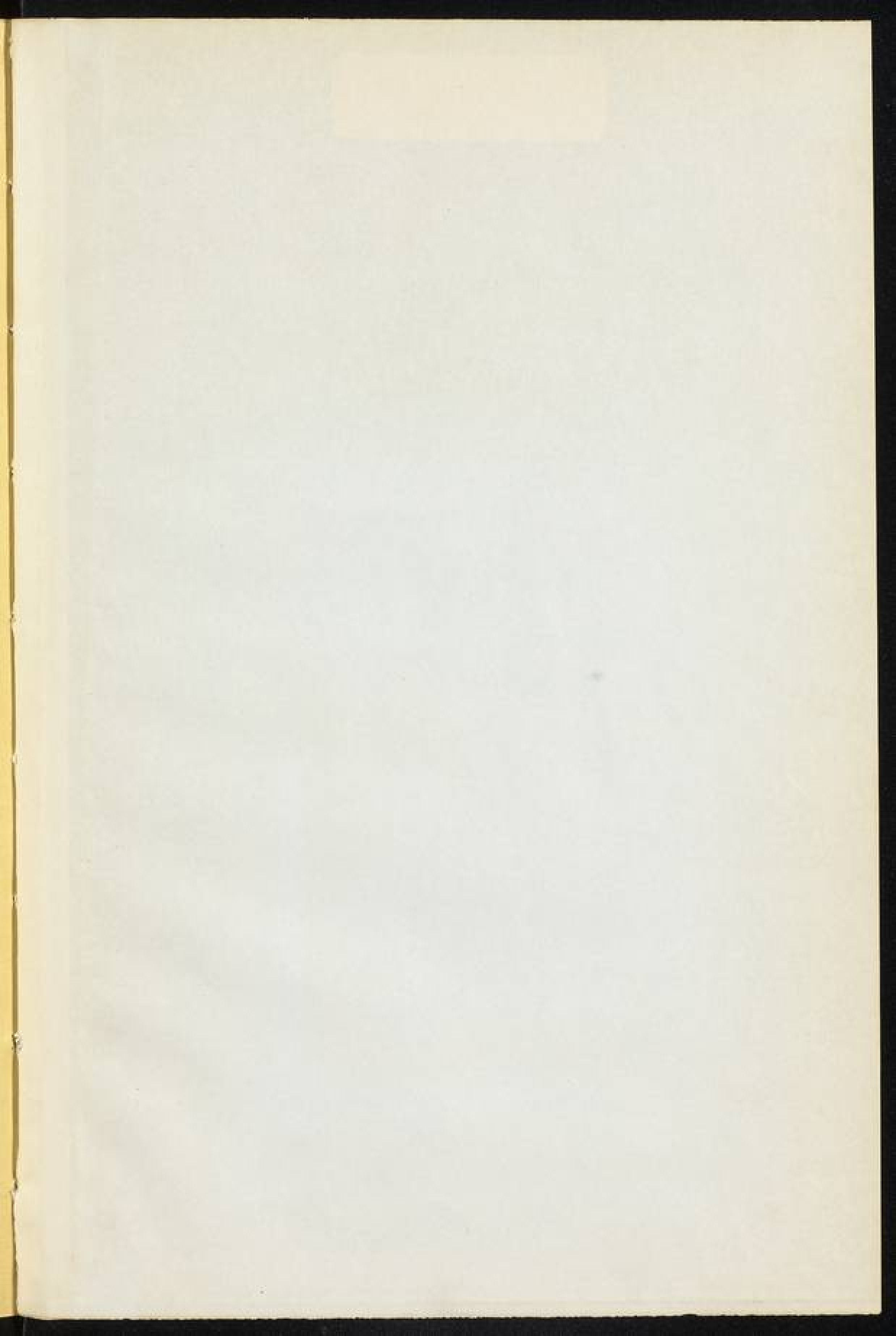
دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

ديوان
الأمير عبد القادر الجزائري



شرح وتحقيق
الدكتور ممدوح حقي





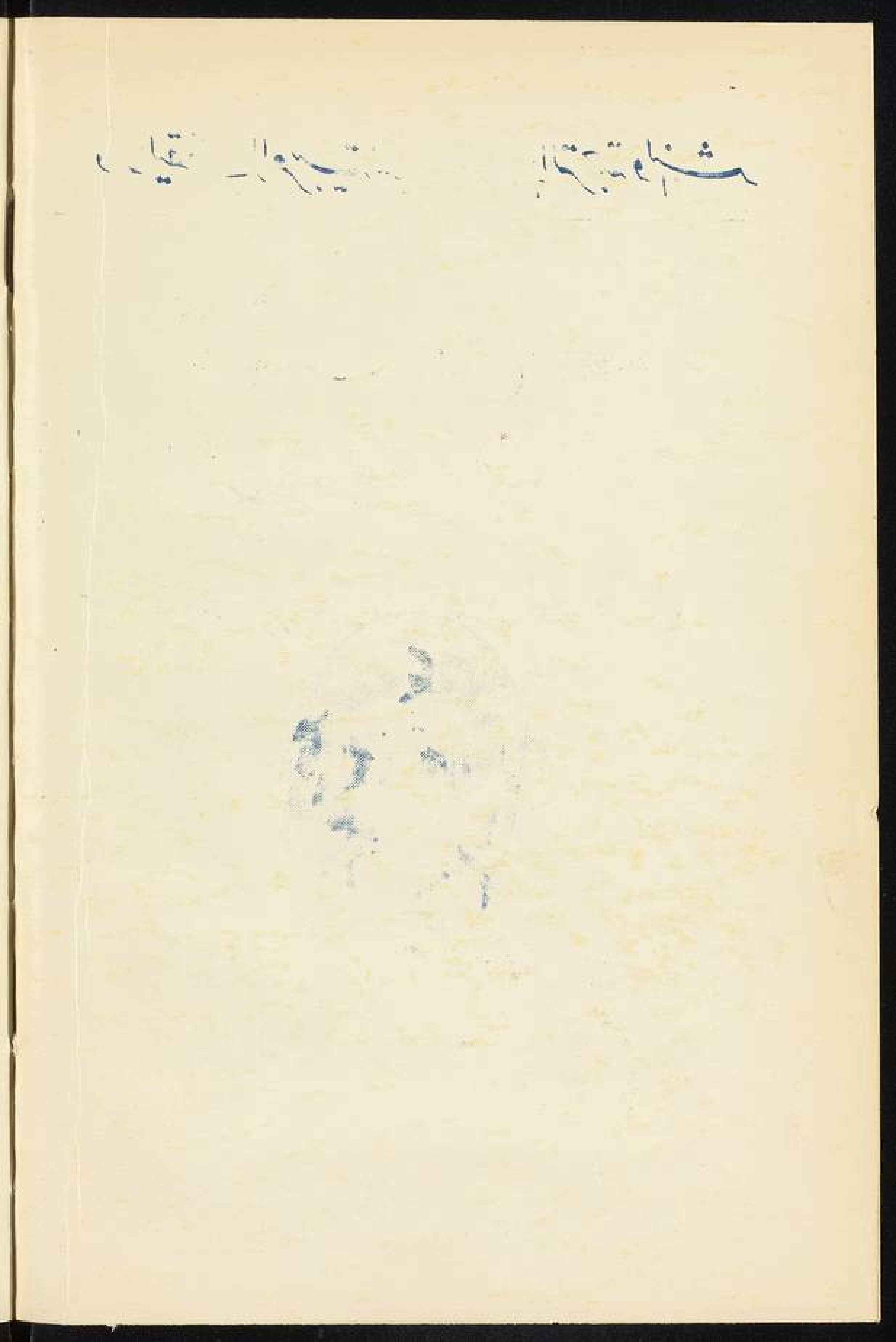
دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

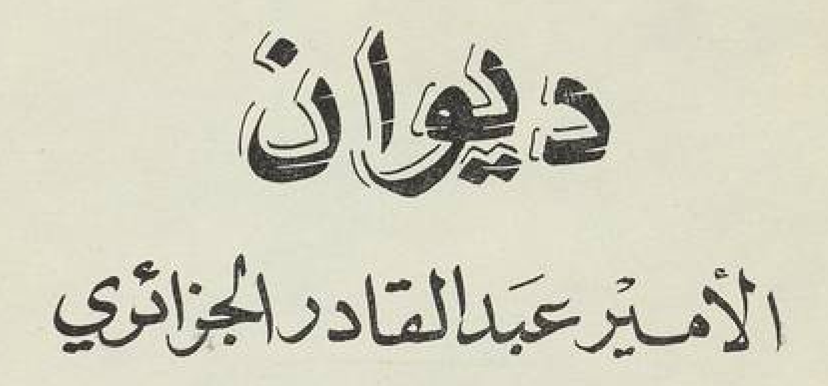
ديوان
الأمير عبد القادر الجزائري



شرح وتحقيق

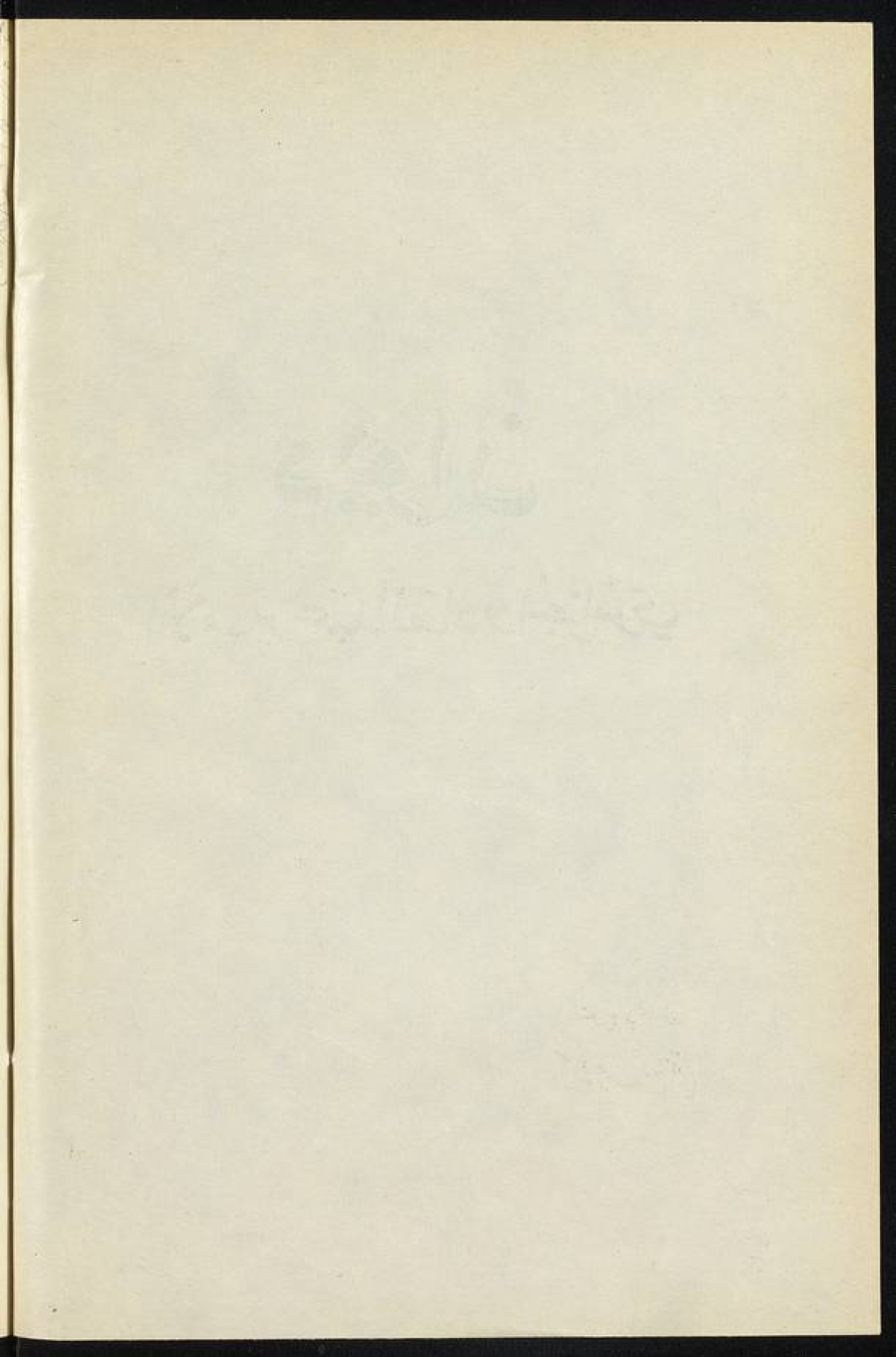
الدكتور ممدوح حقي





شرح وتحقيق

الدكتور ممدوح حقي



مقدمة

بقلم الدكتور ممدوح حقي

لعل سيرة الأمير المناضل عبد القادر الجزائري من أحفل سير الأبطال في العصر الحديث بالتضحية والجهاد من أجل تحقيق المثل العليا المقدسة : الدين والحرية والكرامة ... ولقد قدمت له الامارة تقديماً وعرضت عليه عرضاً ودفعت له دفعاً وكانت الأزمة على أشدها : فقبلها مكرهاً بعد إلحاح شديد وحمل أمانة الحكم بإخلاص فنظم أموره الداخلية بسرعة مذهلة . وقضى على فوضى القبائل بحزم وقطع دابر اللصوص والشطار وقطاع الطريق والغزاة النهابين .. ونشر الأمن حتى اطمأن الشعب لقيادته واستراح لادارته فألف جيشاً نظامياً صغيراً دعم به ملكه . وسك نقداً سهل به تزلق التعامل التجاري في بلاده ، ووضع قوانين وأحكاماً ، ورتب القضاة والموظفين والجباة ، وعقد متاركة مع الجيوش الفرنسية الغازية إلى حين ، وحاول الاتصال بالعالم الخارجي لتمكين دولته الناشئة .. فتوجست منه فرنسا خيفة ونقضت المعاهدة بحجة واهية جداً وهاجمته لتقضي عليه ، فقابل العنف بعنف أشد ، والتحم القتال لايتراخى حتى يشتد ، ومازالت الحرب قائمة بينه وبينهم ستة عشر عاماً ، لم يدخر خلالها وسعاً للدفاع عن حقه وحق شعبه في الحياة الحرة الكريمة . وبذل من المال والأرواح مالاطاقة لدولة راسخة الاساس ببذله . حتى أعيا في جهاد الغزاة المستعمرين ، والخونة المارقين ، والقعدة من ضعاف النفوس ، وخذلان الناصر والمعين . وتقاعس ملوك المسلمين عن معونته ولو بالكلام . ودس جيرانه عليه وتآمرهم عن يمين وشمال . وما استسلم حتى استنفد آخر قطرة من مجهوده وماله ، وماذا تفعل الصدور العارية من الفقر ، والاكف الخاوية من السلاح ، والقلة القليلة الصابرة على البلاء والخيانة

والجوع ، أمام مئات الألوف من الجيوش المزودة بأحدث الأسلحة ، تمدها دولة كانت من أعظم دول العالم وقتذاك وأقدرها على الحرب البرية ؟ ! !

وحمل الأمير على بارجة إلى فرنسا فحبس عليه في قصر بأمبواز خمس سنوات ثم أطلق سراحه وأرسل مكرماً إلى استانبول فاستقبله السلطان العثماني بالتجلة والتكريم وقدم له قصراً في مدينة (بروسا) ولكنه لم يستقر فيها غير عامين ونصف ، ارتحل بعدها إلى دمشق فاتخذها سكناً له ولعائلته ، وتملك بها القرى والدساكر والقصور ، وجعلها منطلقه في رحلاته المتعددة إلى القدس ومكة واستانبول وأوروبا ومصر ، وما زال اسمه يعلو ويشتهر ، خصوصاً بعد حمايته النصارى في الثورة المشؤومة عام ١٨٦٠ حتى أصبح ملاذ العلماء والعظماء والمستشفعين لدى الملوك والأباطرة والحكام وقدمت له الأوسمة والهدايا من كل نوع ، ومنحته فرنسا مرتباً ضخماً بقي في عقبه إلى اليوم ، لم يحرم منه إلا حفيده الأمير سعيد منذ عامين فقط لوقوفه إلى جانب الثورة الجزائرية المجاهدة وتأييد نضال الشعب الجزائري للتحرر من نير الاستعمار الفرنسي الثقيل . وما مات الأمير عبد القادر عام ١٣٢٤ هـ - ١٨٨٣ م ، حتى كان قد شهر في انحاء الأرض بتاريخه المجيد وفضله العميم وعلمه الغزير وخيره الكثير وصداقاته لملوك الأرض وأمرائها وعظمائها على تواضع وتدين رفعه إلى أرقى درجات الصوفية . ودفن إلى جانب الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي في مسجده بسفح جبل قاسيون المطل على دمشق ، وانتخب أهله من بين آلاف برقيات التعزية والرسائل أربعة أبيات لشيخ دمشق وكبير علمائها عبد المجيد الخاني فنقشت على شاهدة قبره للذكرى والعبرة والتاريخ :

لله افق صار مشرق دارتي	قرين هلا من ديار المغرب
الشيخ محي الدين ختم الأوليا	قر « الفتوحات » [1] الفريد المشرب
والفرد عبد القادر الحسنى الأمير	قر « المواقف » [2] ذا الولي ابن النبي

١ ــ اشارة الى «الفتوحات المكية» من ارقى كتب التصوف الاسلامي الرمزية . وقد الفه الشيخ محي الدين فعد من معجزاته .

٢ ــ اشارة الى كتاب « المواقف » الفه الامير عبد القادر في دمشق ويعد في كتب التصوف من الآيات الباهرات .

من نال من أعلى رفيق أرخــوا   أزكى مقامــات الشهود الأقرب.

تلك هي خلاصة سيرة الرجل أوجزتها من عشرات الكتب الفرنسية والعربية في أسطار قليلة لأعرضها في مقدمة ديوانه لمحة خاطفة تمهد لي السبيل إلى بحث فنه شاعراً وأديباً. والكشف عن شخصيته اميراً وعالماً. وما أظنني موفيه حقه ولو كتبت عنه مجلدات، فعبد القادر ليس من الرجال العاديين بل هو مجموعة من قوى متدفقة، لو وزعت على مئات من الرجال، لأغنتهم بالحيوية والايمان والذكاء والألمعية..

* * *

كان معتدل الطول، ملىء الجسم يعلوه رأس ضخم، يتوجه شعر كث مختضب بالسواد، يبرز من بين عينيه الشهلاوين أنف أقنى، يطل على فم مطبق تموج فيه ابتسامة



تطمع بحنان ناعم ووراءه حزم حازم؛ يشع من عينين نفاذتين كالكهرباء. يمشي مستقيما، ويقعد كالمستوفز، وينهض بحزم. إذا ركب وثب إلى ظهر الجواد وثبا، وبقي الى آخر أيامه يحب الخيل ويداعبها ويعني بها ولا يسير بها إلا مزعاً وأرقالا.

يصحو من نومه قبل الفجر فيصلي الصبح حاضراً ، ويقرأ ورده المعتاد بصوت هادىء مسموع ، ثم يضطجع فيغفو إلى مابعد بزوغ الشمس وينهض ليملأ نهاره بعمل مستمر ، لاينقطع لحظة واحدة عن عمل يؤديه أو كتاب يستفيد منه أو مؤلف يعده أو قصيدة ينظمها أو رسالة يحبرها ، واكثر رسائله من المطولات . فإذا وجد فضلة من وقت اشترك في خياطة ثوب ، أو مباراة بالشطرنج مع أحد أخصائه ، وكان يجيد استخدام الابرة في السلم اجادته استخدام السيف في الحرب ، لايهدأ ولا يفـتر عاملا جاداً طوال يومه حتى يصلي العشاء الآخرة ، ويذهب إلى فراشه ليستريح من عناء نهار كامل لم يترك دقيقة واحدة منه بغير عمل . وكان حاد الذكاء ، عجيب الحافظة ، بارعاً في تعريف الأمور ، شديد التمسك بدينه ، حافظاً عهوده ووعوده ، ولكنه كان عصي المزاج ، عنيفاً في الدفاع عما يعتقد أنه الحق ، لايلين للقوة مها قست وطغت ، فيه شيء من عنجهية البادية وعنادها ، على ليونة في القلب أمام الجمال وتراخ لعزة المرأة . حدث عن نفسه وقوته الجسدية وقد عزيزته الجنسية مالا سبيل إلى ذكره هنا [1] ، ويمكن لمن أراد الاطلاع والتوسع فيه أن يرجع إلى الرسائل المتبادلة بينه وبين الجنرال « دوماس » ليجد صراحة جريئة جداً لاتتاح لنا في هذا العصر ؛ وهو نفسه يقول في أحد أجوبته للجنرال [2] « وكن نساء النبي ﷺ يراجعنه في الكلام فيصبر إكراماً لهن . وأنا ــ عبد الله ــ كانت ابنة عمي تغضب علي وتواجهني بما أكره ، فأصبر لها وأفي حقها ، وقلت من قصيدة فيها :

« وأخضع ذلة فتزيد تيهاً — وفي هجري أراها في اشتداد
فما تنفك عني ذات عز — وما أنفك في ذل أنادي
ومن عجب تهاب الأسد بطشي — ويمنعني غزال من مرادي » !!

لقد كانت أعصابه من حديد إلا أمام المرأة ، ولذلك تزوج بغير واحدة وتعددت سراريه ، وأمهات أولاده وكثر منهن ولده . ولعل السر في هذا الخضوع للمرأة كامن وراء إعجابه بأمه وحبه لها وشدة تعلقه بها . فقد لازمها في حله وترحاله ، وسلمه وحربه ، وأرفقها

---

(١) تحفة الزائر ، الجزء الثاني ص ١٦٤
(٢) المصدر نفسه ، الجزء الثاني ص ١٧١

معه إلى الأسر ، وأعادها معه إلى استانبول وبروسه ودمشق ، وامتنع عن الحج خشية أن يفقدها في تغيبه عنها . فلما استخارها الله إلى جواره عام ١٢٧٣ ه حزن عليها حزناً شديداً وتوقف في الطريق مرات متعددة ، من مقبرة الدحداح حيث دفنت ، إلى منزله في العمارة بدمشق ، عجزاً وذهولاً ، والمسافة لاتزيد على كيلو متر واحد . وكان شديد الاحترام لها ، يأخذ برأيها ويستشيرها حتى اتهم بأنه يخضع لما تصدره من مكاتبات وتحارير ومراسلات موقعة باسمه [1]... وربما كانت والدته ذات شخصية طاغية إذ رآها نابليون الثالث في أمبواز فقبَّل يدها احتراماً وسألها الدعاء[2] وفي احتفالات باريس اجلس الأمير إلى جانبه وسأله عنها خاصة [3] وكان كثير من الكبراء والعظماء الذين يراسلون الأمير يقدمون لوالدته الاحترام اللائق مع التحيات الخاصة [4].

ولد الأمير عبد القادر عام ١٨٠٧ م - ١٢٢٢ ه ، في قرية القيطنة من اعمال « وهران » وأخذ الفقه عن والده وعلماء بلده ثم ارتحل إلى القاعدة « وهران » فاستكمل فيها علمه ودرس الفقه والأصول وعلوم اللغة والحديث والمصطلح وحفظ قدراً كبيراً من صحيح البخاري عن ظهر قلب وكان يستقسم به ويقرئه لمريديه ويجيزهم بقراءته حتى آخر أيام حياته . وبرع في علوم الشريعة والحقيقة . وألف فيها ، ولعل « المواقف » أشهر كتبه واكثرها عمقاً وغوصاً في التصوف والتفسير على قاعدته . وراسل علماء العالم الاسلامي سائلاً ومستفسراً ومجادلاً ومجيباً . وناقش علماء فرنسا وسواها مناقشة تشير إلى دراسته العميقة للعهد القديم والأناجيل وتفهمه الدقيق وتذوقه ورقته . يردُّ على الجنرال «دوماس» هجومه على القرآن الكريم الذي يسمح للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة فيقول : « فلو كان في فعل ماذكرته ضرر مافعله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ففي التوراة في الاصحاح التاسع والعشرين : أن يعقوب تزوج ليئا وراحيل . وفي الاصحاح السادس والعشرين أن « عيصو » اتخذ نساء منهن

---

١ - من رسالة للخليفة السيد احمد بن سالم من جبال جرجرة الى الامير : « وقد اشاع المرجفون مالا تقدر على ذكره واشاعوا ان والدتكم تصدر المكاتبات والتحارير اللازمة باسمكم الكريم .

٢ - تحفة الزائر جزء ٢ ص ٣٩

٣ - المصدر نفسه جزء ٢ ص ٤٠

٤ - المصدر نفسه جزء ٢ ص ٥٩

« يهوديت » و « بسمات » . وفي سفر التكوين في الاصحـــاح الرابع : فأخذ له « لامك » امرأتين اسم احداهما « عادي » واسم الاخرى « صالي » ..

وقولـكم ، ويتخذون (أي العرب) مايقدرون عليه من الجواري ، كذلك هو حلال في شرع الاسلام وفي الشرائع القديمة . وفعله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ففي التـوراة في الاصحاح السادس عشر ، أن « سارة » امرأة ابراهيم كانت لها أمة مصرية اسمها « هاجر » فقالت لبعلها : هوذا حرمني الرب الولد فادخل على أمتي ، فدخل بها فحبلت . وفي الاصحاح الثلاثين أن راحيل أعطت أمتها « نبها » إلى يعقوب وولدت له ولدين . وكذلك امرأته « ليئا » أعطته « زلفا » . وولدت له ولدين . وفي الاصحاح الثـاني والعشرين أن سرية « ناصور » ، أخي ابراهيم ، اسمها « روما » ولدت له « طابخ » ، و حاجم » و ناخس » و « معكا » . وكان النبي الله داود عليه السلام عدة كثيرة من الجواري . ولابنه سليمان سبع مئة امرأة وثلاث مئة سرية . والعرب يحبون أولاد الجواري ويقولون : ليس قوم اكيس من اولاد الجـواري لأنهم يجمعون بين عز العرب وعلو همتهم ، وبين دهاء العجم وكمال عقولهم .. الخ .

وهكذا يمضي الأمير عارضاً النصوص من قلب التوراة الـتي يؤمن بها خصمه الجنرال المسيحي ويعتبرها كتابه المقدس ، فيدمغه بالحجة البالغة ، ويكممه بالدليل الذي لايقبل الجدل ..

***

أما أسلوبه في عرض الفكرة فواضح نقي مشرق ، إذا قيس إلى ما كان في زمانه من أساليب الكلام عدّ في الذروة حتما ، مع أنه كان بعيدا عن مركز النهضة الحديثة . هو في أقصى المغرب تقريباً ، وحركة النهضة تتحرك في مصر وسوريا . وقضى اكثر أيامه في المعارك بين قعقعة السيوف وتفجر البارود ورعد المدافع ورهج السنابك . أو في الاسر حزينـا كاسف البال ، مضيعاً ملكه وحريته وماله .. فاقداً أهله وأقرانه ومجده بعد عز عزيز وجاه عريض ؛ فمتى كان يجد الوقت الكافي لينظم الشعر او لينسخ الرسائل او ليؤلف الكتب ؟! وكيف اتيح له ان يتخلص من أساليب القرون الوسطى وركاكتها وتهالكها وترديها ؟ بعث برسالة إلى خصمه الجنرال « بيجو » مرة فقال :

« السلام على من اتبع الهدى واجتنب الردى . أما بعد ؛ فقد بلغني أنكم جئتم من فرنسا إلى الجزائر لقتالنا بما ينوف عن ثمانين الف جندي زيادة على عساكركم السابقة

فيها . فاعلموا أنني بعونه تعالى وقوته لا أخشى كثرتكم ولا أعتبر قوتكم لعلمي أنكم لا تضرونني بشيء إلا أن يضرني الله به ، ولا يلحقني منكم إلا ما قدره الله علي وقضاه . وانني منذ أقامني الله في هذا الامر ، وجعلني ضداً لكم ؛ ما قاتلتكم بعسكر يكون عدده ثلثاً من عساكركم التي تكافحونني بها ومدة ملكي كما لا يخفى ثمان سنين ، ومدة ملككم يتعدى مئات من السنين .. وعساكركم كثيرة وآلاتكم الحربية قوية . ومع هذا البون العظيم الذي بيني وبينكم ، فأني أعرض عليكم أموراً فاختاروا واحدة منها وهي : اما أن تعطوني ما أحتاجه من أدوات الحرب بالشراء ؛ ثم أنظم عسكراً يكون نصف عسكركم الذي تحاربونني به ، وحينئذ نتحارب ، واما أن تبقوا في مواضعكم التي تغلبتم عليها وأبقى أنا في بلادي التي تحت حكمي ثم لا يقرب أحدنا الآخر مدة اثنتي عشرة سنة ، فيبلغ عمر ملكي عشرين سنة وحينئذ أقاتلكم ؛ فان غلبتكم فلا عار عليكم اذ يقال غلبكم رجل له قوة عشرين سنة ، وان غلبتم أنتم فتكونوا قد غلبتم رجلا له قوّة فيحصل لكم الفخر عند الملوك . وأما اليوم فانتصاري عليكم يعد فضيحة لكم عند الدول ، وانتصاركم علي لا يعد فخراً حيث أنكم غلبتم رجلاً عمر ملكه ثمان سنين ولا قوة عنده يقابلكم بها .. ومن الأمور التي أقترحها عليكم أنكم تبعثون من قبلكم من يعدّ عسكري ، ثم أخرجوا من عندكم في مقابلة كل واحد رجلين من عسكركم ، وأعطيكم العهد أني لا أزيد عسكريا واحداً على ما تعدون ، وحينئذ الغالب يملك الوطن ..

ومنها أن يخرج الماريشال للبراز ويخرج له واحد من خلفائي ، فان غلب صاحبكم ، فلا أنازعكم في طريقكم من الجزائر إلى قسنطينة .. ومن أراد من الساكنين أهل تلك النواحي البقاء تحت حكمكم فلا نتعرض له . وان أراد الخروج منها ويلحق ببلادي فأنتم لا تتعرضون له .

ومنها أن ابن الملك يبارزني فان غلبته ، فأنكم ترجعون بعساكركم إلى بلادكم وتتركون سائر المدن التي في يدكم الآن بما فيها من الذخائر والمهمات . وان غلبني فانكم تستريحون مني ويبقى لكم الوطن من غير منازع . فان اخترتم واحدة من هذه الامور ، فلا بد أن تحضروا قناصل الدول ليشهدوا عليكم بقبولكم ذلك . وأما نحن

فلا تخالف كلمتنا ، وان استضعفتمونا ، ولم تبالوا بما قلناه ، اعتماداً على قوتكم . فنحن قوتنا بالله القادر على كل شيء ، هو ولينا وناصرنا .. »

★★★

فأنت ترى أن الفكرة واضحة جداً ليس فيها لبس ولا غموض وليس في الالفاظ غريب ولا في الجمل والتراكيب تعاظل . وكذلك تبدو نفسية الامير البسيطة البريئة براءة الطفل ، والجهل المطبق بأسرار الاستعمار المعاصر ، فهو لا يرى في الحرب الا أنها مجال من مجالات التفاخر ، أما أنها عراك على اللقمة تنتزع من فم البائس المغلوب على أمره ليتفكه بها المستعمر الجشع ، أو أنها تهافت على سرقة منابع الرزق والثروة ، أو أنها طريق استراتيجي للوصول الى هدف أبعد .. فذلك مالم يستطع الامير أن يدركه ولا أن يستسيغه ولذلك فهو يدعو ابن الملك لمبــــارزته ، أو المارشال لمبارزة أحد خلفائه .. والوطن بعدذلك للغالب ..!!!؟

★★★

وكان يرى الشعر من متممات فخره ، يتخذه زينة وحلية ، ويجيز عليه الشعراء الذين يمتدحونه بالعطايا . أما أقرانه من العلماء ، فقد كان يساجلهم الشعر مساجلة ، وكثيراً ما كان يردد قول الشاعر :

اذا جهلت مكان الشعر من شرف فأي مفخرة أبقيت للعرب ؟!

وديوانه الذي بين أيدينا ـ على ما يبدو لي ـ جزء قليل مما نظمه ، ولقد جمعه قبلي ولده محمد باشا ، وأشار إلى أنه ضرب صفحاً عما قاله في « الحقيقة والطائف » ، وهو يعني بالحقيقة ، ما وراء الشريعة من التصوف الرمزي . واني لأعرف له كثيراً من هذا النوع يتناشده رجال الطرق في أذكارهم ، على أني وان كنت قليل الشك في نسبته اليه ، فلاشك في أنه أصبح خليطاً عجيباً من قوله وقول سواه من الدخلاء على هذا الفن ، ومزيجاً غريباً من اقوال متفاوتة الدرجات وأكثره محطم الوزن ، مضطرب المعنى يشق تخليص بعضه من بعض ، وليس من وراء ذلك جدوى فنية ذات قيمة ، والذي بين أيدينا فيه الكفاية ليدل على مستواه في الشعر وعلى الفنون التي تعاطاها ، ومنزلته بين شعراء عصره ، وأسلوبه وقدرته ...

ولقد قسمت الديوان تبعاً لفنونه فاذا هي خمسة في : الفخر ، والغزل ، والمساجلات والمناسبات ، والتصوف .

وهو في فخره يستمد من عنترة أو المتنبي ومن التجاريب التي عاناها ، فلقد دخل المعارك بنفسه ومارسها ممارسة الجندي والقائد ، وجرح فيها مرة ، وقتل فرسه أكثر من مرة ، وازدحم عليه الابطال ، وتهاوى أمامه عدد من القتلى والجرحى قصعاً بالرماح وهبراً بالسيوف . فاذا قال :

إذا ما لقيت الخيل اني لأول	وان جال أصحابي فاني لها تال
ومن عادة السادات بالجيش تحتمي	وبي يحتمي جيشي وتحرس أبطالي
سلي الليل عني كم شققت اديمه	على ضامر الجنبين معتدل عال
وعني سلي جيش الفرنسيس تعلمي	بأن منايام بسيفي وعسالي ..

نعم إذا قال هذا ، فانه لا يتخيل المعارك تخيلاً كسائر الشعراء بل يصف ما رآه وما عاناه وصف الخبير المجرب الممارس .

وفي غزله : يشكو الهجران وآلام البعاد ويتمنى لقاء الحبيب ، ويحمل النسيم التحية ، ويسهر الليل ويسامر النجوم .. ومحبوبه ظبي الصحاري ، ووجهه بدر ، وقامته رمح . وما شابه ذلك من الاوصاف التي لم يرتفع فيها عن مستوى عصره .. أما المساجلات والمناسبات فصورة صادقة لشعر القرون الوسطى بكل ما فيها من ضعف وتفاهة .

على أنه وإن كان متيناً في لغته فقد أكثر من استعمال الضرائر الشعرية ، لغير سبب أحياناً كثيرة ، فقد يضمر قبل الذكر مثلاً كما في قوله :

يتقن النسا بي حينما كنت حاضراً	ولا تتقن في زوجها ذات خلخال

أو يلجأ إلى إيجاز الحذف فيجيء التعبير مختلاً تعباً ، أو يركن إلى زحاف مزدوج ، أو بدل في غير ضرورة إلى المبدل منه ، وتظهر على شعره سمات النحاة والبلاغيين والعروضيين والفقهاء كقوله :

فحياتي بعدكم مذ غبتم	من مجاز مرسل عندي يعد

***

بمحاجر من حاجر أقذاء قد		طردت طيوف الطيف جاءت طوّفا

***

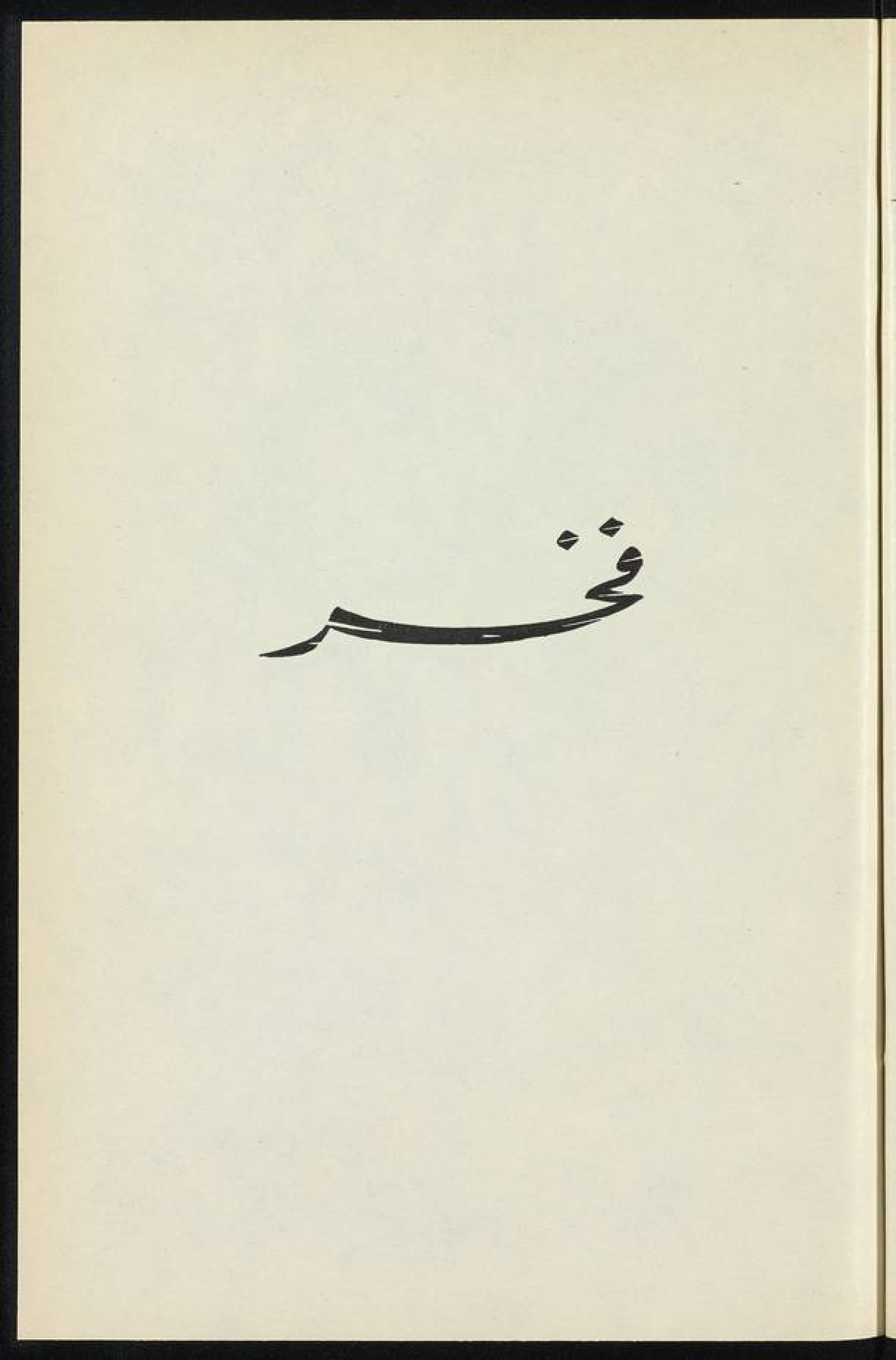
وبالاضافة بعد القطع عرفني		وحط عني تصغيراً واعلالا

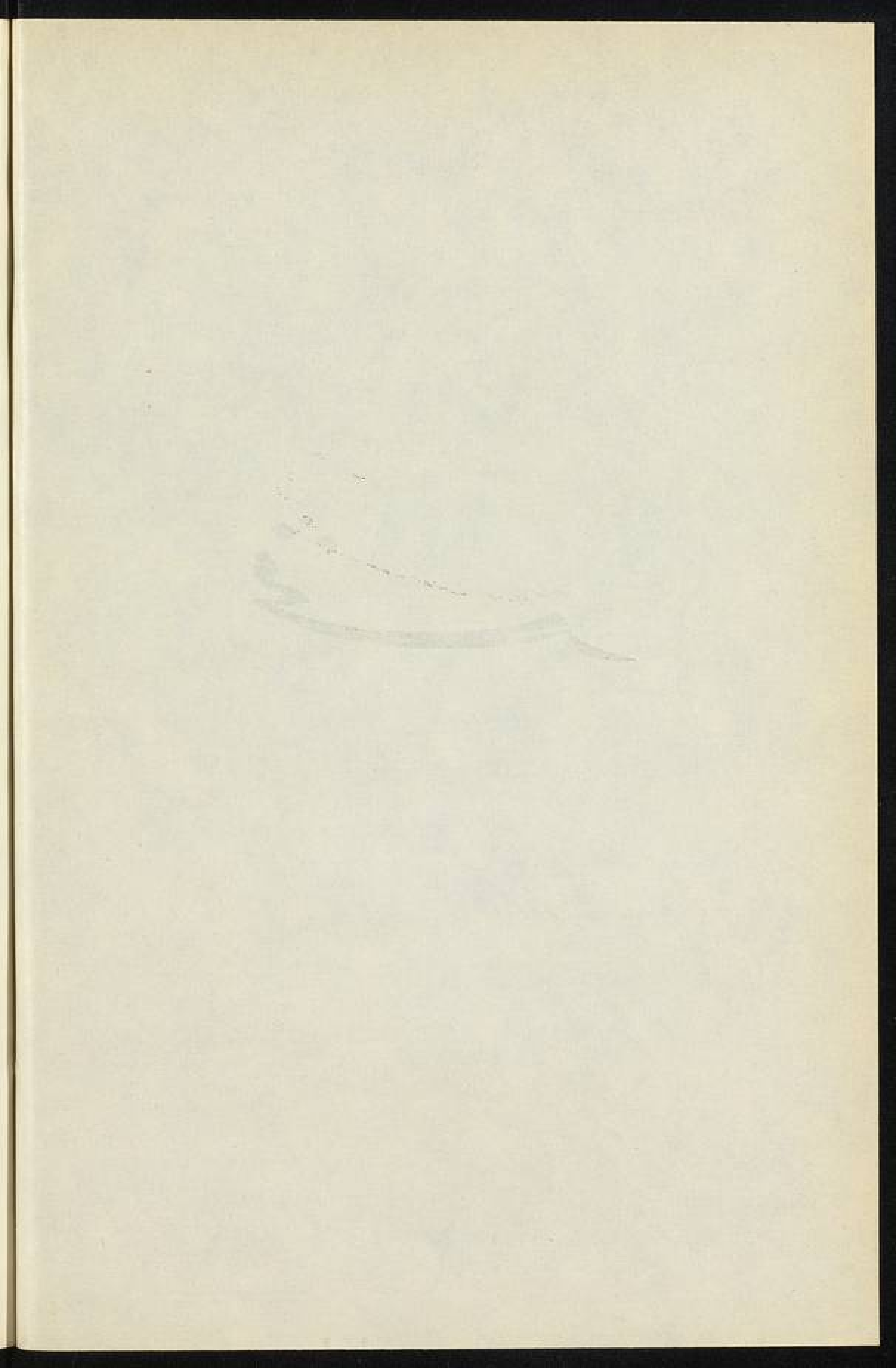
***

والواضح في الديوان ، إنه يمثله تمثيلاً صحيحاً ممتازاً ، ويقدم لنا عنه صورة صادقة أشد الصدق . فهو عربي صميم صحيح العروبة ، متدين شديد التمسك بدينه عميق الايمان بربه كبير الامل بمستقبل الاسلام والمسلمين ، يصارح بالعداء سائر الديانات وغير العرب . الا أن عداءه لا يتخذ الصفة السلبية المتطرفة ؛ بدليل انه حمى عشرات الألوف من النصارى في قصره بدمشق .. ووضع عليهم حرساً من أصحابه واتباعه حتى أنقذ حياتهم .. وفادى بسمعته حين أشاع أنه ذاهب إلى قريته «حوش بلاس» وتخطى الجبال ليلاً إلى زحلة فالتقى بقائد الجند الفرنسي الذي حط في لبنان ، وكان عازماً على الزحف إلى دمشق لينقذ نصاراها ، فاقنعه بالعودة إلى لبنان ريثما تحل الدولة العلية مشكلتها الداخلية بنفسها . ولو كشف أمره اذ ذاك لأتهم بالخيانه . ولكنه كان قانعاً بخير ما فعل . ولو زحف القائد بجيشه على دمشق لجرت مذبحة عظمى وانتقلت المشكلة الداخلية إلى الوسط الدولي ؛ ولا يعرف مداها بعد ذلك إلا الله . وهو إنما فعل ما فعل بوحي العاطفة الدينية العميقة في نفسه واطاعة لأمر الله الذي يأمر بالحفاظ على أهل الذمة .

وبعد ؛ فهذا الديوان أمامك أعيد نشره ونحن في مطالع عام ١٩٦٠ - أي بعد مئة عام بالضبط على الثورة العارمة التي قامت في لبنان ودمشق . وراح ضحيتها كثير من ابرياء المسلمين والمسيحيين وسميت «طوشة النصارى» . اعيد نشره واهديه للاحرار في كل مكان ، ولا ذكّر الفرنسيين الذين يذبحون اخواننا في الجزائر ؛ بالامير عبد القادر الذي حمى أبناء دينهم . وأريهم الفارق العظيم بين العدو النبيل والعدو السافل ، ولأؤكد لهم ان الامير عبد القادر وان زالت صورته الجسدية ، فان روحه الخالدة مازالت باقية فينا تشجعنا وتتجسد في قلب كل جزائري بخاصة وفي صدر كل عربي بعامة . وسيلاقي المستعمرون في صمودنا ما لا قوة منه من عناد في طلب الحق واصرار على القتال حتى التحرر . وحتى تكون كلمة العروبة هي الخالدة . وكلمة الله هي العليا .

ممدوح حقي


فخر





لئن كان هـذا الرسمُ يُعطيك ظـاهري

فليس يُريك الرسم صورتنـا العظمى[1]

فثمَّ ، وراء الرسم ، شخصٌ محجَّب ،

له همَّـــة ، تعـلو بأخمصهـا النجما

ومـا المرء بالوجـــه الصبيح افتخاره

ولكنـــه بالعقل ، والخُـلُق الأسمى

وإن جمعت للمرء هذي وهـذه ،

فذاك الذي لا يُبتغى بعدهـا نعمى

---

(١) كان من عادة الأمير الشاعر أن يكتب هذه الأبيات تحت صورته او خلفها لمن يهديه إياها

أبونا رسول الله

أبونا رسـول الله ، خير الورى طرآ
فمن في الورى يبغي يطـاولنا قدرا[1]

ولانا[2] ، غدا ديناً ، وفرضاً محتماً ،
عـلى كل ذي لبٍّ ، به يأمن الغدرا

وحسبي بهـذا الفخر من كل منصبٍ
وعن رتبةٍ ، تسمو .. وبيضاء أو صفرا[3]

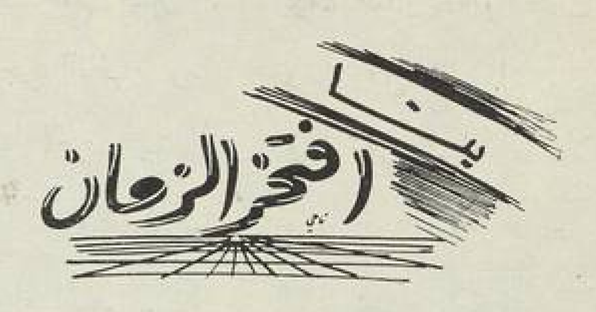
بعليائنا ، يعلو الفخار ، وإن يكن
به قد سمـا قوم ، ونالوا به نصرا

وبالله أضحى عزّنا . وجمالنـا
بتقوى وعـلم . والتزوّد للأخرى

ومن رام إذلالاً لنـا ، قلت : حسبنا
إله الورى ، والجد[4] .. أنعم به ذخرا

---

(١) إشارة إلى نسبته للدوحة النبوية المطهرة . وهو من الفرع الحسني .
(٢) ولانا ـ ولاؤنا .
(٣) البيضاء والصفراء ـ المال بنوعيه من الذهب والفضة .
(٤) الجد ـ يقصد به جده رسول الله « صلعم » .



نظمت هذه القصيدة بعد ظفر الأمير على اربعة جيوش فرنسية ، وعلى كثير من القبائل التي انضمت اليهم ، وكان يقود إحداها الخائن يوسف المنتصر العنابي

لنا في كل مكرمةٍ مجالُ ... ومن فوق السماك لنا رجالُ
ركبنا للمكارم كل هولٍ ... وخضنا أبحراً ولهـا زجال[1]
إذا عنها توانى الغير عجزاً ؛ ... فنحن الراحلون لها ، العجال[2]
سوانا ، ليس بالمقصود لما ... ينادي المستغيث : ألا تعالوا !!
ولفظ الناس ، ليس له مسمّى ... سوانا . والمنى ، منا ينال
لنا الفخر العميم بكل عصرٍ ... ومصر ... هل بهذا ما يقال ؟!
رفعنا ثوبنا عن كلّ لؤمٍ ... وأقوالي ، تصدّقها الفِعال
ولو ندري بماء المزن يزري !! ... لكان لنا على الظما احتمال !!

---

(١) زجال ـ ضجة وهمهمة .

(٢) روي عجز هذا البيت بتنكير « عجال » ورفعها ، وفي ذلك خطأ نحوي إذ ينبغي أن تكون منصوبة على الحال لا مرفوعه على انها خبر ثان .

ذرا ذا المجد ـ حقاً ـ قد تعالت ... وصدقاً ، قد تطاول ، لا يُطال
فلا جزعٌ ولا هلعٌ مشينٌ ، ... ومنا الغدر ، أو كذب ، محالُ
ونحـلم ؛ إن جنى السفهاء يوماً ... ومن قبل السؤال ، لنا نوال
ورثنـا سؤدداً للعرب يبق[1] ... وما تبقى السماء ، ولا الجبال
فبالجد القـديم[3] علت قريش ... ومنا فوق ذا طابت فَعـال
وكان لنا ـ دوامَ الدهر ـ ذكرٌ ... بذا نطق الكتاب ولا يزال[2]
ومِنّا لم يزل في كل عصرٍ ... رجالٌ ، للرجـال همُ الرجال
لقد شادوا المؤسس من قديم ... بهم ترقى المكارم والخصال
لهم همم سمتْ فوق الثريـا ... حماة الدين ، دأبهم النضـال
لهم لسن العلوم ، لها احتجاج ... وبيض ، ما يثلمهـا النزال
سلوا ؛ تخبرْكم عنا فرنسا ... ويصدق إن حكت منهـا المقال
فكم لي فيهم من يوم حرب ... به افتخر الزمـان ، ولا يزال

---

(١) تكون فكرة العروبة واضح في هذا البيت .

(٢) الرسول (ﷺ) هو الجد القديم الذي علت به قريش . وهو لا يكتفي بالمجد التليد بل يبنى على اساسه مجداً طريفاً بفعاله الحسنة .

(٣) يشير إلى قوله تعالى : « إن الله وملائكته يصلون على النبي . يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » والى دعاء المسلمين في جلسة السجود بقولهم « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد .... » ويفاخر بأنه منتم إلى هـذه الدوحة المطهرة التي يصلى عليها يسلم أبد الدهر .

أبيات تلمسان

اشتهرت « تلمسان » بصبرها على مقاومة فرنسا ، وهي
احدى مدن الجزائر الكبرى ، وقد استنجدت بالأمير
مرةً فأنجدها بنفسه ودخلها مظفراً فقال :

إلى الصون مُدَّت تلمسان ، يداها
ولبّت . فهــذا حسن صوت نِداها

وقد رفعت عنهــا الإزار ، فلج به
وبرِّد فؤاداً ، من زلال نَـداها

وذا روض خدّيهــا ، تفتّق نَوْره
فلا ترضَ من زاهي الرياض ، عَداها

ويا طالما صانتْ نقاب جمالهــا
عـداة وهم - بين الأنام - عــداها

وكم رائمٍ رام الجمــال الذي ترى
فأرداه منهــا : لحظها ، ومُناهـا

وحاول لثم الخال من وَرد خدهـا
فضنَّت بما يبغي ، وشطّ مداهـا
وكم خاطبٍ ، لم يُدع كفئاً لها . ولم
يشم طرفاً ، من وشي ذيل رداهـا[1]
وآخر لم يعقـد عليهـا بعصمةٍ
وما مسَّها مسّاً ، أبان رضاها

وشغل الأمير عن اتمام القصيدة فكلف كاتبه أن يجيزها ويكمل معناها فقال الكاتب السيد قدور بن محمد بن رويلة :

ولم تسمح العذرا اليه بعطفةٍ ولم يتمكن من جميل سناها
وشدَّت نطاق الصدّ صوناً لحسنها فلم يتمتّع من لذيذ لماهـا
وأبدتْ له مكراً وصدّاً وجفوةً وسدَّت عليه ما نوى بنواهـا[2]
وخابتْ ظنون المفسدين بسعيهم ولم تنل الأعدا هناك مناهـا
قد انفصمت من «تلمسان» حبالهـا وبانت وآلت لا يحلّ عراهـا
سوى صاحب الإقدام في الرأي والوغى وذي الغيرة الحامي الغداة حماهـا
ولما علمتُ الصدق منها بأنهـا أنالتني الكرسي ، وحزت علاهـا
ولم أعلمن في القطر غيري كافلاً ولا عارفاً في حقها وبهاها

---

(١) رداها : رداؤها ، ثوبها .

(٢) نواها : بعدها

فبادرتُ حزماً وانتصاراً بهمتي وأمهرتُها حبّاً شفاءً دواها

فكنت لها بعلاً، وكانت حليلتي وعرسي، وملكي، ناشراً للواها

ووشحتها ثوباً من العزّ رافلاً فقامت باعجاب، تجرّ رداها

ونادتْ أعبد القادر المنقذ الذي أغثتَ أناساً من بحور هواها!!

لأنك أعطيت المفاتيح عنوةً فزدني أيا عزّ الجزائر جاها

ووهران، والمرساة، كلاً بما حوت غدت حائزات، من حماك، مناها



صورة قبر الأمير عبد القادر الجزائري بدمشق - يقف أمامه حفيده الأمير سعيد وبعض صحبه

لي يحتمي جيشي

تساءلني أمُّ البنين ، وإنها
لأعلم ، مَن تحت السماء ، بأحوالي
ألم تعلمي يا ربة الخدْر أنني
أُجلّي همومَ القوم ، في يوم تجوالي !!
وأغشى مضيق الموت ، لا متهيّباً
وأحمي نساء الحي ، في يوم تهوال
يثقن النسا[1] بي ، حيثما كنت حاضراً
ولا تثقن في زوجها ذاتُ خلخال
أمير ، إذا ما كان جيشي مقبلاً
وموقد نار الحرب ، إذ لم يكن صالي
إذا ما لقيت الخيل ؛ إنّي لأول
وإن جال أصحابي ؛ فإني لها تالِ
أدافع عنهم ، ما يخافون من ردىً
فيشكر كلُّ الخلق ، من حسن أفعالي
وأورد رايات الطعان صحيحةً
وأصدرها بالرمي تمثال غربال

(١) الاضمار قبل الذكر في هذا البيت من ضعف التأليف :

ومن عادة السادات ، بالجيش تحتمي
وبي يحتمي جيشي ، وتحرس أبطالي
وبي تُتّقى ، يوم الطعان ، فوارس
تخالينهم في الحرب ؛ أمثال أشبـال
إذا ما اشتكت خيلي الجراح تحمحماً
أقول لها : صبراً ، كصبري وإجمالي
وأبذل يوم الروع نفساً كريمةً
على أنهـا في السلم ، أغلى من الغالي
وعني سلي جيش الفرنسيس ، تعلمي
بأن منايـاهم بسيفي وعسّالي
سلي الليل عني ، كم شققتُ أديمه
على ضامر الجنبين ، معتدلٍ عال
سلي البيدَ عني والمفاوز والرُّبى
وسهلاً وحَزناً ، كم طوَيتُ بترحالي
فما همّتي إلا مقارعة العـدا
وهزمي أبطـالاً شداداً بأبطالي
فلا تهزئي بي ، واعلمي أنني الذي
أُهاب ، ولو أصبحتُ تحت الثرى بالي

ما في البداوة من عيب

كان الأمير أسيراً في أمبواز ، وكان موضع التكريم من علماء فرنسا وعظمائها ، يراسلونه ويراسلهم ، وبعث إليه بعض امرائهم يسألونه رأيه فيما اختلفوا فيه : هل البدو أفضل أم الحضر ؟! فردّ عليهم بالقصيدة التالية

يا عاذراً لامرىءٍ قد هام في الحضر
وعـــاذلاً لمحب البـــدو والقفر

لا تذممنَّ بيـوتاً خف محملها[1]
وتمدحنْ بيوت الطين والحجر !!

لو كنت تعلم مافي البدو ، تعذرني
لكن جهلت . وكم في الجهل من ضرر !

أو كنتَ أصبحت في الصحراءِ ، مرتقياً
بساط رملٍ ، به الحصباء كالدُّرر

---

(١) بيوت الشعر ينقلها البدو معهم حيثما رحلوا

أو جلتَ في روضةٍ ، قد راق منظرها
بكل لونٍ ، جميل شيّق عطر
تستنشقنّ نسيماً ، طاب منتَشقاً
يزيد في الروح ، لم يمرر على قذر
أو كنت في صبح ليلٍ . هاج هاتنه[1]
علوت في مرقب[2] ، أو جلت بالنظر
رأيت في كلّ وجه من بسائطها[3]
سرباً من الوحش[4] ، يرعى أطيب الشجر
فيالهـا وقفة ، لم تبقِ من حزنٍ
في قلب مضنى ، ولا كدّاً لذي ضجر
نُباكرُ الصيدَ أحياناً فنبغته[5]
فالصيد منّـا مدى الأوقات في ذعر
فكم ظلمنا ظليماً[6] في نعامته
وإن يكن طائراً في الجو كالصقر

---

(١) الهاتن ـ المطر الغزير
(٢) المرقب ـ مكان مرتفع كالتل
(٣) البسائط ـ المنبسط الفسيح من الأرض كالسهل
(٤) الوحش ـ الظباء ، أو المها
(٥) نبغت ـ نباغت ونفاجىء
(٦) الظليم ـ ذكر النعام

يوم الرحيل إذا شدت هوادجنا

شقائق[1] عَمّها مزنٌ من المطر

فيها العذارى وفيها قد جعلن كوى

مرقعـــات بأحداق من الحور[2]

تمشي الحداة لهـــا من خلفها زجل

أشهى من الناي والسنطير والوتر[3]

ونحن فوق جياد الخيل نركضها

شليلها زينة الاكفال والخصر[4]

---

(١) شقائق : زهر أحمر شديد الحمرة ينبت في البوادي أيام الربيع وغب الأمطار . وهو هنا يشبه الهوادج الحمراء بشقائق النعمان لشدة حمرتها والبدو يحبون اللون الأحمر كثيراً، منذ الجاهلية حتى اليوم . قال زهير :

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن تحملن بالعلياء من فوق جرثم

علون بأنمـــاط عتاق وكلة وراد حواشيها مشاكهة الدم

(٢) يشبه عيون العذارى وهن ينظرن للرجال من خلف شقوق الستائر بالرقاع تستر هذه الكوى .

الحور : شدة بياض العين إلى جانب شدة سوادها

(٣) الحادى : المنشد للابل من خلف القافلة وهي تسير

الزجل : الضجة الخفيفة كتغبير النحل

الناي : قصبة مجوفة مخرمة ينفخ فيها فتعطي أنغاماً عذبة حنوناً

السنطير: آله موسيقية تشبه القانون يضرب على أوتارها بمطارق خشبية صغيرة خفيفة فتنغم

الوتر : كناية عن أي آله وترية كالعود والكمنجة والرباب

(٤) الشليل : العرق المتقاطر

نطارد الوحش والغزلانَ ، نلحقها

على البعاد ، وما تنجو من الضمر

نروح للحي ليلاً بعـــدما نزلوا

منازلاً ، ما بهـــا لطخ من الوضر[1]

ترابها المسك بل أنقى وجاد بها

صوب الغمائم بالآصال والبكر

نلقى الخيام .. وقد صُفّتْ بها ـ فغدن

مثل السماء ، زهت بالأنجم الزهر

قال الألى قد مضوا ، قولاً يصدّقه

نقلٌ وعقلٌ . وما للحقّ من غِير

« الحسن يظهر في بيتين ، رونقه :

بيت من الشِعْرِ ، أو بيت من الشَّعَر »

أنعامنـا إن أتت عند العشي تخل

أصواتهـــا كدويّ الرعد بالسحر

سفائن البرّ[2] ، بل أنجى لراكبها .

سفائن البحر ، كم فيها من الخطر !!

---

(١) الوضر : القذر

(٢) سفائن البر : كناية عن الابل .

لنـا المهارى[٣] . وما للريم[٤] سرعتها
بهـا ، وبالخيل ؛ نلنـا كلَّ مفتخر
فخيلنا ، دائمـاً للحروب مسرجة
من استغاث بنا ، بَشّره بالظفر
نحن الملوك فلا تعدل بنـا أحـداً
وأي عيشٍ لمن قد بات في خفر ؟!
لا نحمل الضيم ممّن جار . نتركه
وأرضه . وجميـع العزّ في السفر
وإن أساء علينـا الجار عشرته
نبين عنـه بلا ضرٍ ولا ضَرَر .
نبيت ، نار القرى تبـدو لطارقنـا
فيها المداواة ، من جوع ومن خَصَر
عدّونا ، مـاله ملجا ولا وزرٌ
وعنـدنا عاديات السبق والظفر
شرابهـا ، من حليب ، ما يخـالطه
ماء . وليس حليب النوق كالبقر

---

(٣) المهارى : جمع مهرية وهي من أنجب النوق
(٤) الريم : الغزلان البيضاء

أموال أعدائنا ، في كل آونةٍ

نقضي بقسمتها ، بالعدل والقدر

ما في البداوة من عيبٍ تذمُّ به

إلاّ المروءة ، والإحسان بالبِدَرِ

وصحةَ الجسم فيها . غير خافيةٍ

والعيب والداء ، مقصور على الحَضَر

من لم يمت عندنا بالطعن ، عاش مدىً

فنحن أطول خلق الله في العمر ! !

★★★

شددت عليه شدة هاشمية

كان قائد المعركة ، والد الأمير عبد القادر . وقد دارت رحاها عند وهران في مكان يدعى «خنق النطاح» ، وكان الأمير عبد القادر على فرس أشقر يحض الناس على القتال ويصبرهم على المكروه ويعدهم الجنة ، إذ طعنه أحد فرسان العدو برمح مرّ بخلو أبط الأمير ولم يؤذه . فشدّ عليه بعضده وهوى بسيفه على الفارس فقده نصفين . وقد طعن فرسه ثمان طعنات ولكن لم يقع حتى أصيب في رأسه برصاصة . حدثت هذه المعركة الهائلة عام ١٨٣٢ م ١٢٤٧ هـ وقد وصفها الأمير بهذه القصيدة :

توسّدْ بمهد الأمنِ قد مرّت النوى[١]
وزال لغوب[٢] السير ، من مشهد الثوى[٣]

وعزّ جياداً ، جاد بالنفس كرّها
وقد أشرفت — ممّا عراها — على التوى[٤]

---

(١) النوى : البعد

(٢) اللغوب : أشد الاعياء والتعب

(٣) الثوى : الاقامة

(٤) التوى : الهلاك . وروي عجز هـذا البيت في (تحفة الزائر) ص ٩٢ : وقد أشرفت مما دهاها إلى القوى

ألا !! كم جرت، طلقاً بنا، تحت غيهب

وخاضت بحار الآل، من شدة الجوى[1] ؟!

وكم مِن مفازات[2]، يضلُّ بها القطا

قطعت بها. والذئب، من هولها، عوى

وقد أصبحت، مثل القسيّ ضوامراً

وتلك سهام للعدى، وقعُها شوى[3]

إلى أن بدت نيران أعلامنا[4] لها

وفي ضوء نيران الكرام، لها صوى[5]

ولا سيّما أهل السيادة مثلنا

بنو الشرف المحض المصان عن الهوى

---

(١) الغيهب : الظلمة. والخيل الدهم شديدة السواد.

الآل : السراب

الجوى : الحزن الشديد.. والظمأ القامح

(٢) المفازة : الصحراء القاحلة.

(٣) الشوى : ما كان غير مقتل للانسان. شوى يشوي شيئاً : أنضج اللحم بتعريضه للنار.

(٤) العلم : الراية. سيد القوم. الجبل البارز يهتدى به ويلجأ اليه

(٥) الصوى : ج صُوّة : حجر ينصب في الطريق دليلاً للسابلة

فقالت : أيا ابن الراشديّ [1] ، لك الهنا
كفى ،فاترك التيسار ،وأحمد وجى [2] النوى
ألا !! يابن خلاّدٍ [3] ، تطاولت للعلى
وبايَنْت [4] مأواكَ الكريمَ ، وما حوى
فمن أجل ذا ، قد شُدَّ في ربعنا لها
عقالٌ [5] . وناديناً : لك العزُّ قد ثوى [6]
وحلّ بكهف ، لا يرام [7] جنابه [8]
فمن حلّ فيه ، مثل من حلّ في طوى [9]
فإنّا أكاليل الهـــداية والعلى
ومِن نشر علياهم ، ذوي المجد قد طوى

---

(١) ابن الراشدي : يقصد نفسه
(٢) الوجي : الحفا من طول المشي والتسيار
(٣) خلاّد : مبالغة من خالد .
(٤) باين : زايل . هجر . ترك
(٥) شد العقال : كناية عن الاقامة .
(٦) ثوى : أقام
(٧) يرام : ينـال
(٨) جنابه : مقامه ، مكانه
(٩) طوى : الجبل المقدس الذي حلّ به موسى فقال له الله تعالى : اخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى

فنحن لنا دين ، ودنيا ، تجمّعـــا

ولا فخر ، إلا ما لنا يرفع اللّوا [1]

مناقب مختـارية [2] ، قادرية [3]

تسامت [4] . وعباسية [5] ، مجدها احتوى [6]

فإن شئت علماً ، تلقَني خير عالمٍ

وفي الروع ، أخباري ـ غدت ـ توهن [7] القوى

لنا سفن ، بحر الحديث بهـا جرى

وخاضت ، فطاب الورد ، ممن بها ارتوى

وإن رمت فقه الأصبحيّ ، فعج [8] على

مجالسنا ، تشهد لواء العنـا دوا

---

(١) اللـواء : العلم . والجملة كناية عن تمام الخضوع

(٢) مختارية : منسوبة إلى النبي المختار

(٣) قادرية : منسوبة إلى الطريقة القادرية

(٤) تسامت : تعالت

(٥) عباسية : منسوبة إلى بني العباس أعمام النبي

(٦) احتوى : جمع

(٧) توهن : تضعف وتخيف

(٨) عج : التفت واهتمّ وأقبل علينا

وإن شذث نحواً ، فانحنا [1] ، تلق ما له ؛
غدا يذعن البصري [2] ، زهداً بما روى
ونحن سقينا البيضَ [3] في كل معركٍ
دماء العدا . والسمر [4] ، أسعرت الجوى
ألم ترَ في « خنق النطاح » [5] نطاحنا
غداة التقينا ، كم شجاعٍ لهم لوى ؟!!
وكم هامةٍ [6] ، ذاك النهار ، قددتها
بحدّ حسامي . والقنا ؛ طعنه شوى [7]
وأشقر تحتي ، كلّمته [8] رماحهم
ثمانٍ . ولم يشك الجوى . بل وما التوى

---

(١) انحنا : اقبل علينا واقتد بنا
(٢) البصري : الحسن البصري
(٣) البيض : السيوف
(٤) السمر : الرماح
(٥) خنق النطاح : اسم مكان قرب وهران جرت به معركة رهيبة كان قائد المجاهدين فيها السيد محي الدين والد الأمير عبد القادر
(٦) هامة : رأس
(٧) شوى : متلاحق حاد
(٨) كلمته : جرحته . طعن الحصان في موقعة خنق النطاح سنة ١٢٤٧ هـ ثمان طعنات وتجلد كفارسه ثم أصابته رصاصة في رأسه فوقع

بيوم ، قضى نحباً أخي [1] فارتقى إلى

جنانٍ له ، فيها نبيّ الرضا أوى

فما ارتدّ مِن وقع السهام عنانُه

إلى أن أتاه الفوز [2] ، راغم من عوى

ومن بينهم ، حملته ، حين قد قضى

وكم رميةٍ كالنجم ، من أفقه هوى [3]

ويومَ قضى تحتي جوادٌ برميةٍ

وبي أحدقوا ، لولا أولو البأس والقوى [4]

---

(١) الشهيد : ابن أخيه السيد أحمد بن محمد سعيد وكان ذلك في وقعة خنق النطاح الثانية

(٢) أتاه الفوز : كناية عن الشهادة في سبيل الله

(٣) هوى : سقط . يشبه الرمية ، وهي ساقطة ، بهوي النجم حين يخرّ في الفضاء بسرعة فائقة .

(٤) في هذا البيت إشارة إلى حادث غريب جداً من نوعه .. كان الأمير قد أطلق جماعة من أسرى الفرنسيس بعد أن عاملهم معاملة حسنة جداً . ولما عادوا إلى قطعهم والتحقوا بجيشهم سيّرتهم فرنسا راغمين إلى قتال الأمير على اعتبار أنهم أعرف به من سواهم وباستطاعتهم أن يكشفوه في المعركة ويباغتوه بالقتل أو الأسر . ولكنهم حينما رأوا الأمير قد سقط عن فرسه وهو يحاول الدفاع عن جثة ابن أخيه الشهيد ريثما يحمله المجاهدون إلى الخطوط الخلفية ، وحينما رأوا أن رفاقهم من الجنود الفرنسيين الآخرين يهاجمونه بشدة ، أحدق به هؤلاء الأسرى الطلقاء كالحلقة ودافعوا عنه وحموه ريثما أتي له بفرس فركبه وأتم القتال وربح المعركة . !!!

وأسيافنا ، قد جرّدت من جفونها

وردّت إليها ، بعد ورد ، وقد روى [1]

ولما بــدا قِرني ، بيمناه حربةٌ

و كفّي بها نارٌ ، بها الكبش [2] قد شوى

فأيقن أني قابض الروح ، فانكفا

يولّي ، فوافاه حسامي ، مُذْ هوى

شددتُ عليه شــدةً هاشمية

وقد وردوا ورد المنايا ، على الغوى [3]

نزلت « ببرج العين » [4] نزلة ضيغم [5]

فزادوا بها حزناً ، وعمّهم الجوى

وما زلت أرميهم بكل مهنّد

وكلّ جواد ، همّه الكرّ ، لا الشوى [6]

---

(١) وقد روى : الواو حالية . والفاعل الورود ، من باب ايجاز الحــذف . والمعنى : أن الورود إلى الحرب روى السيوف دماءً . فحينما استلّت كانت عطشى وحينما ردّت كانت ريّانة من دم الأعادي

(٢) الكبش : زعيم القوم وبطلهم

(٣) الغــوى : الضلال

(٤) برج رأس العين : مكان إلى الغرب من وهران

(٥) الضيغــم : الأسد

(٦) الشــوى : التراجع والفرّ

وذا دأبنا . فيه حيـــاة لدينا

وروح جهادٍ [1] ، بعد ما غصنه ذوى [2]

جزى الله عنا كلَّ شهم ؛ غدت به

غريس [3] لها فضل ، أتانا وما انزوى

فكم أضرموا نار الوغى بالظبا معي

وصالوا وجالوا . والقلوب لها اشتوا

وإنّا بنو الحرب العوان لنا ؛ بها

سرور ، إذا قامت ، وشانئنا [4] عوى

لذاك ؛ عروس الملك ، كانت خطيبتي

كفجأة موسى ، بالنبوّة ، في طوى [5]

وقد علمتْني خيرَ كفءٍ لوصلهـــا

وكم ردُّ عنها خاطب ، بالهوى هوى [6]

---

(١) يلاحظ في هذا البيت شدة تعصب الشاعر للدين ، وهو يرى أن الجهاد ، جهـــاد الكفار ، من صلب الدين . وأنه فرض عين على المكلف خصوصاً في هذا الوقت .

(٢) ذوى : يبس . أي ذوى غصن الدين بسبب ترك الجهاد .

(٣) غريس : اسم قبيلة كانت مؤيده للأمير الشاعر في جهاده .

(٤) الشانيء : الكاره الحاقد

(٥) كما فوجيء موسى بكلمة من ربّه في الوادي المقدس طوى ؛ كذلك فوجيء الأمير بتاج الامارة . يشبه الامارة بالعروس ويقول في البيت الثاني : إنها بكر . وكثيراً ما يشبه الشاعر بالبنت البكر وبوصالها ويطيل التشبيه . فعلى ماذا يدل هذا ؟!!

(٦) الهوى : الحب والغرام . هوى : سقط وخر

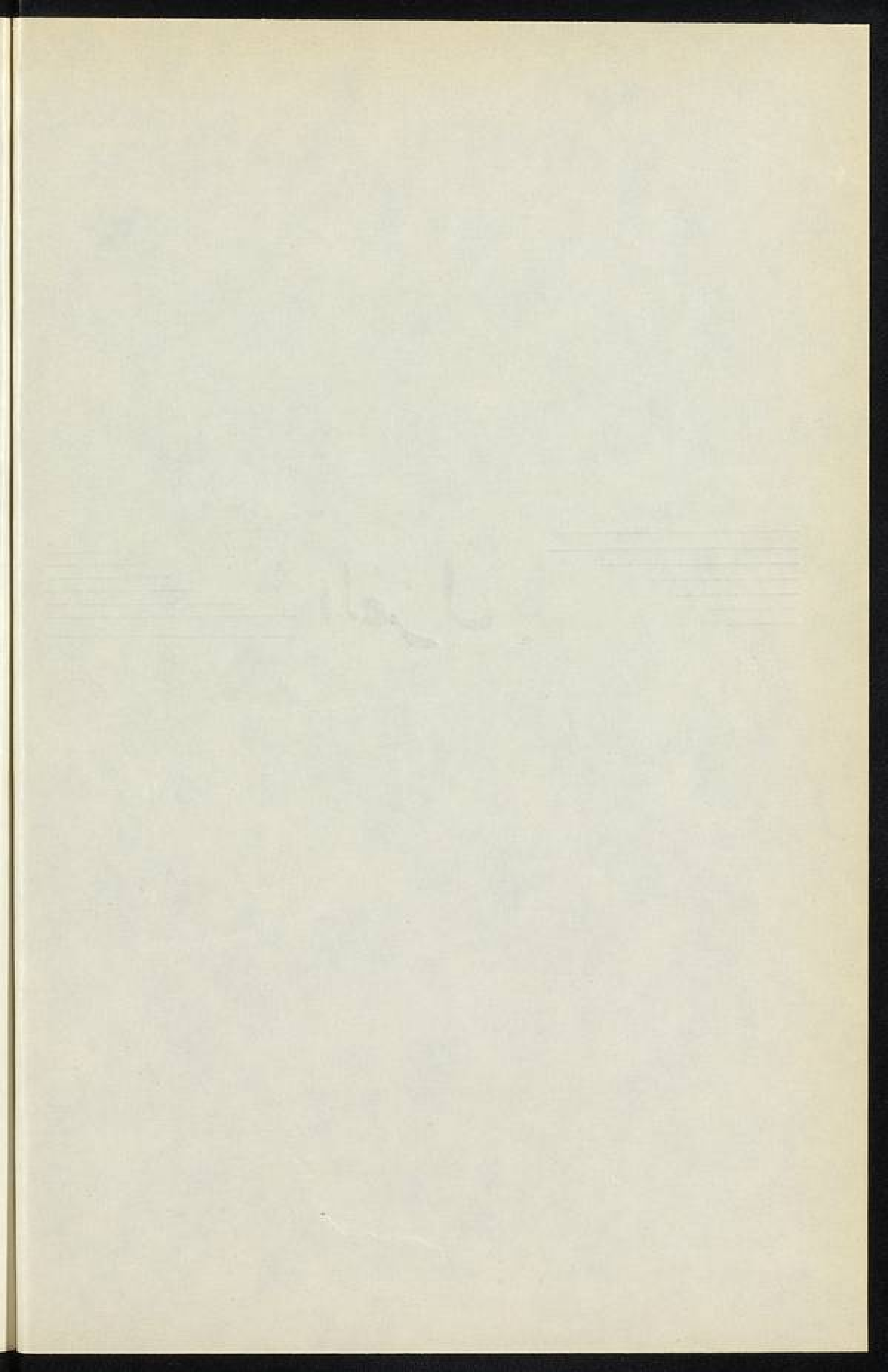
فواصلتها بكراً ، لديَّ تبرَّجتْ
ولي أذعنت . والمعتدي بالنوى[1] ثوى
وقد سرت فيهم ، سيرةً عمرية
وأسقيت ظاميها الهداية ، فارتوى
وإني لأرجو أن أكون ، أنا الذي
ينير الدياجي بالسنا ، بعد ما لوى[2]
بجاه ختام المرسلين مُحمد
أجلّ نبيٍّ ، كلَّ مكرمةٍ حوى[3]
عليه صلاة الله ، ثم سلامه[4]
وآل ، وصحب ، ما سرى الركب للّوى
وما قال بعد السير ، والجدّ منشدٌ :
« توسّدْ بمهدِ الأمن، قد مرّتِ النوى »

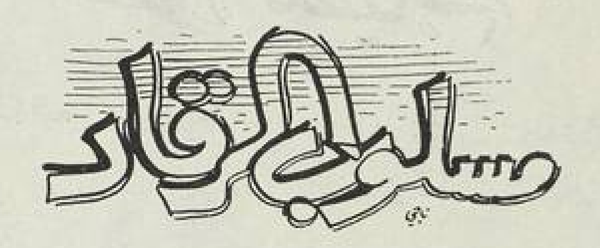
---

(١) النوى : البعاد
(٢) السنا : الضياء
(٣) لوى : انطفأ . وفاعل لوى مستتر يعود على السنا .
(٤) يكثر الشاعر من تأخير الفعل عن فاعله ومفعوله لا لنكتة بلاغية . بل لأن القافية و الوزن هي التي تقسره على ذلك في أغلب الأحيان .
(٥) جرت العادة في القرون المتوسطة أن يبتدىء الشاعر قصيدته بحمد الله ويختمها بالصلاة على رسول الله . وتلاحظ هذه الظاهرة في شعراء المغرب بشكل واضح جدا .



الغزل





ألا قل للّتي سلبت فؤادي   وأبقتني ، أهيمُ بكل وادِ
تركت الصبَّ ، ملتهباً حشاه   حليف شجىً ، يجوب بكل ناد
وما لي في اللذائذ من نصيب   تودّع منه مسلوب الرقاد



إلامَ فؤادي بالحبيب هتور[1] ؟!   ونار الجوى بين الضلوع تثور ؟!
وحزني، مع الساعات، يربو مجدّداً   وليلي طويل ، والمنام نفور
وحتى متى أرعى النجوم ، مساهراً   لها ، ودموع العين ، ثَمّ تفور ؟!
أبيت ، كأني بالسماك موكلٌ   وعيني، حيث الجدي دار، تدور[2]

---

(١) هتور : مولع دنف .

(٢) السماك : نجم معروف . والجدي : برج من ابراج السماء .

منوا بلقياكم

فإن كان هذا البعد تأديب مذنب
فإنّا بهذا القدر ؛ صرنا على شفا

وإنّا لنخشى إن تطاول بعدكم
يصير لكم سلوى ، فلا يرتجى شفا

فمنّوا بلقياكم . وإلا ، فلا بقا
وريح الفنا تسفي علينا . إذا سفا

يتيه بدله عمداً

أودّ بأن أرى ظبي الصحاري [1]
وأرقب طيفه ، والليل سار

وأطلب قربه ؛ فيزيد بعداً
قديماً ، من وصال ؛ في نفار

وهذا الظبي ؛ لا يرعى ذماماً
ولا يرضى مؤانسةً لجار

يتيه بدلّه ، ويصول عمداً
غنيٌّ بالجمال ، فلا يُداري

أمازحه ؛ فلا يرضى مزاحاً
وأسأله المراء [2] ؛ فلا يُماري

ويعتبني [3] ؛ فيكسو القلب بسطاً
لأن العتب ؛ يطفي حرّ ناري

فإن هو لم يَجُد بالوصل أصلاً
ويدني الطيف ، من سكني وداري

أقول للنفس : ويك ألا فذوبي
وموتي . فالقضاء عليك جار !!

ويسلبني الحياة ، إذا تبدّى [4]
بوجهٍ في الإضاءة كالنهار

---

(١) ظبي الصحاري: غزال الفلوات . وقد كنى به هنا عن الكواعب البدويات

(٢) المراء : المسايرة والايناس

(٣) يعتبني : يقبل عتابي (٤) تبدى : ظهر



أقاسي الحب ؛ من قاسي الفؤاد ... وأرعاه ؛ ولا يرعى ودادي

أريد حياتها ، وتريد قتلي ... بهجرٍ ، أو بصدٍّ ، أو بعاد

وأبكيها ؛ فتضحك ملء فيها ... وأسهر ؛ وهي في طيب الرقاد

وتعمى مقلتي ؛ إما تناءت ... وعيناها تعمّى عن مرادي

وتهجرني ، بلا ذنب تراه ... فظلمي ، قد رأت ، دون العباد

وأشكوها البعاد ، وليس تصغي ... إلى الشكوى ، وتمكث في ازدياد

وأبذل مهجتي في لثم فيها ... فتمنعني ، وأرجع منه صادٍ[1]

وأغتفر العظيم لها . وتحصي ... عليّ الذنب ، في وقت العداد

وأخضع ذلة ؛ فتزيد تيهاً ... وفي هجري ؛ أراها في اشتداد

فما تنفك عني ذات عزّ ... وما أنفك في ذلي أنادي

فما في الذلّ للمحبوب عارٌ ... سبيل الحبّ ، ذلٌّ للمراد

رضا المحبوب ؛ ليس له عديلٌ ... بغير الذلّ ؛ ليس بمستفاد

---

(١) صادٍ : عطشان . وكان حقها النصب على الحال : ورفعها هنا تابعٌ للقافيه

ألا !! مَن منصفي مِن ظبي قفرٍ[1] لقد أضحت مراتعه فؤادي ؟!!

ومِن عجبٍ ، تهاب الأسدُ بطشي ويمنعني غــزالٌ عن مرادي

وماذا !؟ غير أنّ له جمــالاً تملك مهجتي ملك الســواد

وسلطانُ الجمال ، له اعتزاز على ذي الخيل[2] ، والرجل الجواد

وهذا الفعل ، مغتفر وزين إذا - يوماً - أبيت على معاد

فإن رضيت عليَّ ، أرتْ محيّاً بشوشاً بالمــلاحة ، ظَلَّ باد[3]

خليلي !! إن أتيتَ إلي يوماً بشيراً بالوصــال وبالوداد

فنفسي ، بالبشارة إن ترمها فخذهــا بالطريف وبالتلاد

إذا ما الناس ترغب في كنوزٍ فبنت العمّ ، مكتنزي وزادي

---

(١) ظبي القفر : غزال البرية ، ويكنى به هنا عن المرأة

(٢) ذو الخيل : الفارس الشجاع البطل . ومعنى البيت ، ان سلطان الجمال يخضع الفرسان الابطال ويجعلهم كالعبيد وان الرجل الجواد الكريم يجود حتى بعزته للجمال ويخضع له

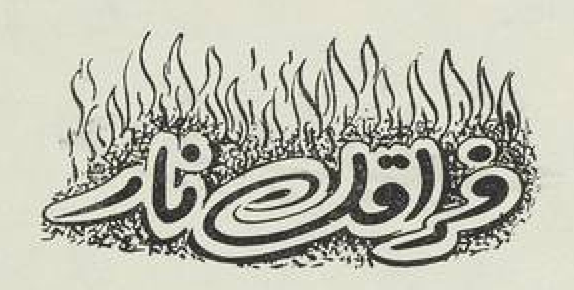
(٣) ظلّ باد: بقي ظاهرا . وكلمة (باد) حقها النصب خبراً لظلّ . ولكنه رفعها اتباعاً للقافية كعادته

جودي بطيف

جفاني من أم البنين خيـــالُ | فقلبي جريح ، والدموع سجال[1]
ولو قلت: دمعي قد ملكت،فكاذب | بدعواي . بل ذا غرّةٌ وضلال
وبي ، ما يزيل العقل عن مستقرّه | فلا تعجبوا ، إن قيل : فيه خبال
وما هي إلا الروح ، بل إن فقدتها | فإن بقائي دونهـــا ، لمحال
أحبّ الليالي ، كي أفوز بطيفها | وأرجو المنى ، بل قد أقول : أنال
أكلّف جفني النوم ، علّي أن أرى | مثالاً لها ، يسري ، وليس مثال
فقولوا لها : إن كنت ترضين عيشتي | فجودي بطيف ، إن يعزّ وصال
فينعم قلبي ، والجوارح كلّهـا | وإلا ، فعيشي محنةٌ ، ووبال

---

(١) سجال : متدفقه كما يتدفق الماء من السجل وهو الدلو.



هذه القصيدة أرسلها الأمير من استانبول إلى زوجته في بروسة ، يتشوق اليها أيام كان يسعى لدى السلطان ليقبل بانتقاله إلى دمشق عام ١٢٧٢هـ

أقول لمحبوب تخلّف مِن بعـــدي
عليلاً بأوجـــاع الفراق ، وبالبعد

أما أنت حقًا ، لو رأيت صبابتي
لهان عليك الأمرُ . مِن شدة الوجد

وقلت : أرى المسكين عذّبهُ النوى
وأنحله ـ حقًا ـ إلى منتهى الحدّ

وساءك ما قد نلت من شدة الجوى
فقلت : وما للشوق يرميك بالجد ؟!

وإني ، وحق الله ، دائم لوعـــةٍ
ونار الجوى ، بين الجوانح في وقد

غريقٌ ، أسير السقم ، مكلوم الحشا
حريقٌ بنار الهجر . والوجد والصدّ
غريقُ حريقٍ . هل سمعتم بمثل ذا ؟!
ففي القلب نار . والمياه على الخد
حنيني ، أنيني ، زفرتي ، ومضرتي
دموعي ،خضوعي ، قد أبان الذي عندي
ومن عجبٍ ؛ صبري لكلّ كريهةٍ
وحملي أثقالاً ، تجلُّ عن العد
ولست أهاب البيض ، كلا ، ولا القنا
بيوم تصير الهام للبيض كالغمد
ولا هالني زحف الصفوف ، وصوتها
بيوم ، يشيب الطفل فيه ، مع المرد
وأرجاؤه ، أضحت ظلاماً . وبرُقه
سيوفاً . وأصوات المدافع ، كالرعد
وقد هالني . بل قد أفاض مدامعي
وأضنى فؤادي . بل تعدّى عن الحدّ
فراق الذي أهواه ، كهلاً ويافعا
وقلبي ؛ خليٌ من سعاد ، ومن هند

فحلَّت محلاً ، لم يكن حلّ قبلها
وهيهات أن يحللْ به الغير ، أو يجدي
وقد عرّفتني الشوق ، من قبلُ ، والهوى
كذا والبكا - ياصاح - بالقصر والمد[1]
وقد كلفتني الليل ، أرعى نجومه
إذا نامه المرتاع ، بالبعد والصدّ
فلو حملت رضوى ، من الشوق ، بعض ما
حملت ، لذاب الصخر ، من شدّة الوجد
ألا !! هل لهذا البين من آخر ؟! فقد
تطاول ، حتى خلتُ هذا ، إلى اللحد[2]
ألا !! هل يجود الدهر بعد فراقنا ؟!
فيجمعنا . والدهر يجري إلى الضدّ
وأشكوك ماقد نلت ، من ألم ، وما
تحمَّله ضعفي ، وعالجه جهدي
لكي تعلمي – أمّ البنين – بأنه
فراقك نارٌ . واقترابُك من خلد[3]

(١) أي البكا والبكاء . كناية عن طول مدة البكاء وقصرها !!
(٢) إلى اللحد : أي إلى نهايه العمر
(٣) أي قربك الجنة وبعادك جهنم



بعث بهذه القصيدة إلى ولده في بروسة وهو في باريس أثناء رحلته الأولى اليها بعد فكاك أسره عام ١٢٧١ ﻫ

أحباب قلبي !! كم بيني وبينكمُ … من أبحرٍ، وصفها، قد دقّ عن حدٍّ !!

تحار فيها القطا . والعيّ يدركها … حتى الجهات بها ، تخفى عن القصد

ما كنت أدري . بأن الدهر يبعدكم … عني، ويتركني - من بَعدكم - وحدي

قد خانني الصبرُ . ما أجدى بمنفعةٍ … سيل المدامع، قد سالت على خدّي

والطيف ؛ مثّل لي أوصافكم ، فبدا … بشرى. ومذقمت، غير الحزن ماعندي

هل الغزال ، الذي أهواه ، يسعفني … بالوصل يوماً ، كما قد كان في العهد ؟!

هل النفور، الذي أهواه ، يسعدني … بالقرب، من بعد ما أبدى من الصدّ ؟!

ياذا النّفور، الذي في القلب مرتعُه ! … ارتع به ، لا تُرَع، فالصبّ في بُعد

إني ؛ وإن كنتَ منّي نافراً ، فلقد … أرضى بطيف خيالٍ، منك، لا يجدي



مناسبة القصيدة : امتدح السيد داود البغدادي ابن سليمان النقشبندي الأمير بقصيدة طويلة مطلعها :

جاءت مبشرة الأحباب بالبشر حيَّت فأحيت بنشر ميت البشر

صبَّت على الصبِّ أنواع التفضل إذ سرت فسرَّت معنّى بالغرام سري

وهي قصيدة طويلة محتشدة بالمحسنات البديعية من جناس وطباق وتورية كأنه يريد بها أن يظهر تبحره في البديع . فأجابه الأمير بالقصيدة « الخالية » هذه .

خليليَّ ! وافتْ منكم ، ذاتُ خلخـال

تتيـه على شمس الظهيرة بالخـــال[1]

تميس ؛ فتزري بالغصون ، تمـايلاً

تروح ، وتغدو ، في برودٍ من الخال[2]

---

(١) الشامة

(٢) برد يمـاني

لهـــا منطق حلو ؛ به سحرَ بابلٍ
رخيم الحواشي ، وهو أمضى من الخال[1]

موشّحة مِن طرزكم ، ببدائـــع
محجّبة ، عن كل ذي فطنة خال[2]

وكسوتها النعماء ، من كلّ محسن
يصدُّ لمرآها الشجاع ، كما الخال[3]

فما نسجُ داودٍ كنسج عناكب
ولا الغادة الهيفاء تزهو بخلخال[4]

وما عيبهـــا إلاّ التغرّب في الورى
فلم تلق من أختٍ لها ، لا ، ولا خال[5]

أتتني على بعدٍ ، ولم يثن عزمها
مهامه فيحٌ ، لا ، ولا سطوة الخال[6]

تعسفتِ الفيفـــاء ، في غسق الدجى
فكم قطعت نهراً من الخيل والخال[7]

---

(١) البرق
(٢) خالي البـال
(٣) ماء السحاب
(٤) إسورة تلبس في ساق المرأة
(٥) أخ الام
(٦) الشجاع
(٧) الفيفاء ـ الفلاة . الغسق ـ شدة ظلمة الليل . الخال ـ الفارس

أتتني ـ فدتها النفس ـ في حين غفلةٍ
فقلت لهــا : أهلاً ، فذا وقتنا خال[1]

وأفرشتها خدّي ، وقلتُ لهـا : طئي
فلا تحسبي خدي عليك بذي خـال[2]

ولما تطارحنا الأحاديث بيننـــا
وأحلى تلاقي الخلّ ، بالمنزل الخال[3]

وعنكم ، غدت تنبي ، بمـــا أنتَ أهله
وإن ودادي اليوم ، أرسى من الخال[4]

وأبثثتها وجدي ، ومـــا بين أضلعي
من البعد ، والأشواق ، والدمع كالخال[5]

وحدثتها عن لوعتي ، وتحرّقي
وقطعِ الليـالي ، بالتأمل كالخال[6]

---

(١) فــارغ
(٢) بخـل
(٣) المـنزل الحسن
(٤) الجبل العظيم
(٥) المطر
(٦) الملازم للشيء لا ينفك عنه

تكاد لذاكرهم تذوب حشاشتي

ومالي سواهم من وليّ ، ولا خالِ[1]

ولولا الأماني ، كنت ذبتُ من الأسى

أقول : كئيب ، نال ذلك من خال[2]

أُروّح نفسي بالأمـــاني ، راجياً

سماحة دهرٍ ، ضنّ ، يرجع كالخال

★★★

---

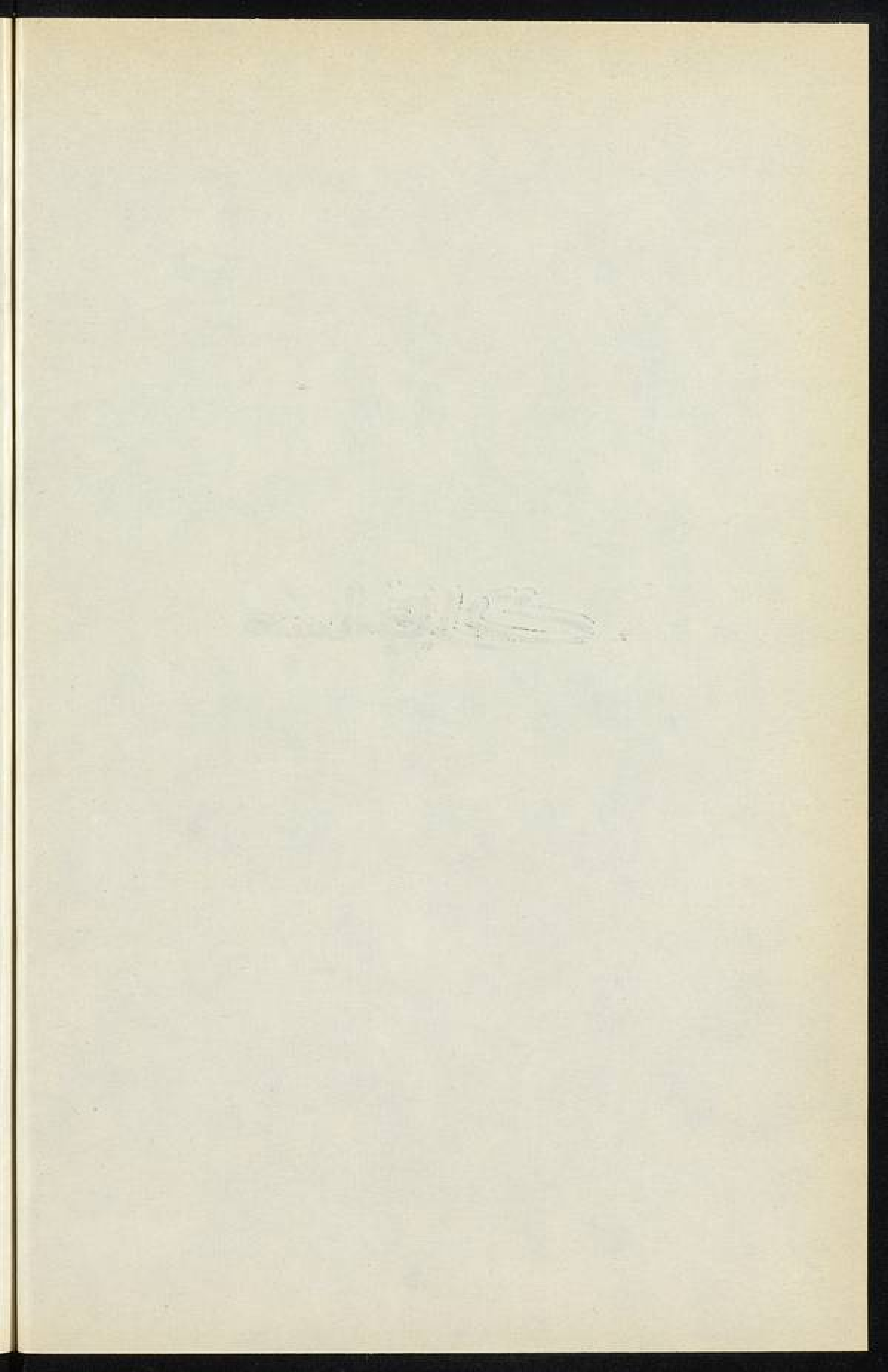
(١) الأمير (٢) ضعيف القلب

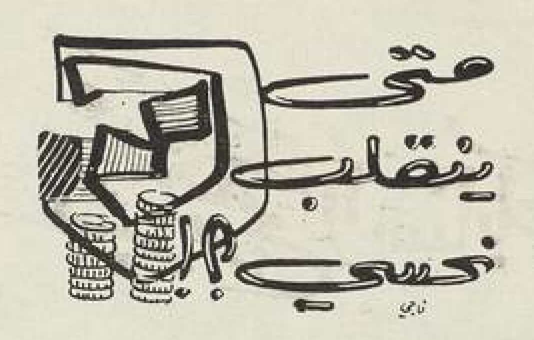
(٣) الرجل السمح الكريم



الأمير سعيد الجزائري ، يعتز بسيف جده ، الأمير عبد القادر
المهـــدى إليه من نابليون


مساجلات





أطلق الفرنسيون كاتب الأمير من ربقة الأسر فتوجه إلى المدينة المنورة رأساً وكتب للأمير بذلك فأجابه بهذه الأبيات . واسم كاتبه قدور ابن رويلة :

أخي ! نلتَ الذي قد كنت تطلبه
وفزت دوني ، بما ترجو وترغبه

وساعدتك الليالي ، لا شقيت ، فدُمْ
قرير عينٍ ، بوصلٍ ليس تُسلَبه

قد طاب في طيبة الغرّا مقامكم
جوارَ محبوبنا ، مَن كنت ترقبه

يا هل ترى ! مثلما فزتم أفوز ؟ وهل
تعلو سعودي ، على نحسي ، فتقلبه ؟!



رمي الشاعر في إحدى المعارك برصاصة أصابت طرف أذنه فأدمتها . وبعث إلى كاتبه قدور بن رويلة بالحجاز رسالة كنى له بها عن الأمر بالقدوم عليه ، وذيلها بالأبيات التالية :

يا عابد الحرمين ! لو أبصرتنا ... لعلمتَ أنك في العبادة تلعبُ

مَن كان يخضب خدَّه بدموعه ... فنحورنا ، بدمائنا تتخضّبُ

أو كان يتعب خيله في باطلٍ ... فخيولنا ، يوم الصبيحة ، تتعب

ريح العبير[1] لكم . ونحن ، عبيرنا ... رهج السنابك[2] . والغبار الأطيب

(١) العبير : الرائحة الزكية .

(٢) الرهج : الغبار . السنابك : حوافر الخيل ويكني برهج السنابك ، عن العثير المتطاير في المعارك والقتال



الأبيات التالية جواب السيد قدور على المقطوعة المتقدمة «عبيرنا رهج السنابك» بعثها إليه من الحجاز

بأبي وأمي افتديك من الردى ... وبأحمد وبأخته أتقرب

واحسرتي واضيعتي واخيبتي ... إن لم أكن بفدائكم أتلقب

وحياتكم فلأنني بفراقكم ... اعلى لظىً وجمارها اتقلب

هل من قطا يوماً يعير جناحه ... صبّاً غدا بفراقكم يتعذب

حتى أراني في حماكم واهباً ... روحي فداكم في رضاكم أرغب

★



استسلم الأمير للفرنسيين فنقلوه إلى قصر أمبواز بالقرب من باريس ولم يسمح بمرافقته إلا لأسرته فقط . وبعد بضع سنين تسامحوا لبعض علماء الجزائر ومراكش من أصدقائه أن يزوروه. وقدم عليه يوماً السيد محمد الشاذلي القسنطيني ، وهو من علماء المغرب المشهورين فرحب به الأمير بالقصيدة التالية

أهلاً وسهلاً بالحبيب القـــادم … هذا النهار لديَّ ، خير مواسم

جاء السرور ، مصاحباً لقدومه … وانزاح ، ما قد كان ، قبل ملازمي

أفديك ، بالنفس النفيسة ، زائراً … من غير ما منٍّ ، ولستُ بنادم

طالت مساءلتي الركاب ، تشوقاً … لجمـــال رؤية وجهك المتعاظم

لا غرو إن أحببتكم ، من قبل ما … شاهدتكم ، أنتم جمـــال العالم

كانت ، على سمعي ، تغار نواظري … حتى رأيتك ، أنت ، أنت مكالمي

عندي الأيادي البيض ، حيث أريتني … ما كان قبلاً ، في يقين العـالم

والآن ، صرت من اليقين ، بحقه　　　وبعينه ، إن السرور منادمي

أسميّ قطبِ العارفين ! لك العلا　　　متبوناً منـه أجل معـالم

أنت الذي في الفضل أصبح مفرداً　　　لعلاه ، ما من مدّعٍ ومزاحم

لا زلت ميمون النقيبة ، طالعاً　　　بالسعد . ذا فضل ، وخدن مكارم



اطلع الشاذلي على القصيدة المتقدمة « أهلاً بالحبيب » فبعث إلى الأمير بالأبيات التالية

سلام عليكم طال شوقي إليكم　　　وقلبي سواكم في البرية ما أحب

سلام يفوق المسك نشر عبيره　　　يعمّكم والآل ياسادة العرب

أتيتكم عبداً لقصد زيارةٍ　　　لعلّي أؤدي ما عليّ لقد وجب

فمنوا على العبد الذليل بدعوةٍ　　　ينال بها حسن الختام مع الأرب

وكان مرادي أن ألاقيكم على　　　بساط عزيز الملك والحرب في نشب

وما كان في ظني أرى سيدي كما　　　رأيت . ألا لله ما تصنع النوب

فصبراً لحكم الله راج ثوابه　　　فان ثواب الله يأتي على التعب

السمر الليلة عندنا

دعا الشاذليُّ الأمير إلى سمرٍ يقضيانه معاً في منزل الشاذلي وكانت صيغة الدعوة شعراً . قال :

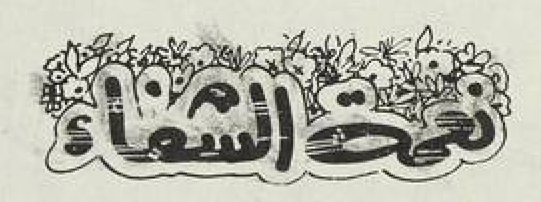
أيا سيداً فاق الكرام بمجده ... وخلق كريم لم يزل طيب النشر
تراه يريح الهم حسن حديثه ... ويبرىء مكلوم الفؤاد من الغمر
ألا سمرٌ منكم بذا الليل عندنا ... فألفاظكم أشهى إليَّ من القطر
وإن كان عذراً للتخلف منكم ... فحسبي من أوصافكم طيب الذكر
عليك سلام الله ما قلب عاشقٍ ... لوصل حبيبٍ راح يهوى مدى الدهر

***

لا يأبى الكرامة إلا

وأجاب الأمير على المقطوعة المتقدمة والسمر الليلة عندنا ، بأبيات من الروي والوزن ذاتها . وكان الجواب القبول مع الشكر

نعم . ولكم فضل ، بأشرف دعوةٍ
غدوت بها - يا صاح - منشرحَ الصدرِ
وقد قيل : لا يأبى الكرامة غير من
له عرق لؤم ، لم يزل في الخنا ، يسري
لمجلسكم ؛ أعلى الكرامة عندنا
ولفظكم ؛ أشهى إلينا من الدرّ
ورؤيتكم ؛ أجلى لهمّي . وإنني
غنيتُ بها ، عن طلعة الشمس والبدر
عليك تحيات القبول ، تكرُّماً
أيا واحداً - عندي، يعدّ - بذا العصر



مرض السيد محمد الشاذلي يوماً فعاده الأمير صباحاً فسرّى عنه شيئاً من آلامه . ثم عاده مساء فلم يجده في داره فرقم على بطاقته الأبيات التالية وتركها له في المنزل

خليلي ! قل لي : كيف أمسيت ؟! انني
تحملت حزناً منك . يعيا له رضوى

لقد مرضت أرواحنا ، وجسومنا
لشكواكم . يا ليت لا كانت الشكوى

فلا تبغ إتلافي ، فما لي طاقة
على الصبر - يا روحي - ولست له أقوى

وإني لأرجو نعمة الله بالشفا
عليك . لتحظى بالسرور ، كما تهوى

الله يكشف البلوى

وقرأ الشاذلي بطاقة الأمير «نعمة الشفاء»
فأجابه بالأبيات التالية برويها ووزنها

بخير لقد أمسيت والقلب شيّق ... للقياكم شوق المحب لمن يهوى
أحنّ لرؤياكم وخيرّي ما نعي ... وذكركم أنساني الضرّ والبلوى
لئن كان جسمي في الفراش فهمتي ... بساحتكم يامن هو الغاية القصوى
سألت إلهي أن يخفف ضرنا ... ويجمعنا فيكم ويكشف ذي الشكوى

يا قرة العين

بعث الأمير بالأبيات التاليـــة إلى الشاذلي
يسأله عن حاله :

يا قرة العين ! قل لي : كيف بتّ ؟! فقد
ـ والله ـ بتُّ ؛ وقلبي في لظى الحزنِ
عمـــا عراكم ، عسى فيه أقاسمكم
أو حمله ، كله . لو كان يمكنني
حتى يتمّ لنا ، من وصلكم ، غرض
قد طالمـــا كنت راجيه من الزمن

وقاكم الله المحن

وردّ الشاذلي بالأبيات التالية على مقطوعة
الأمير « ياقرة العين » بالوزن والروي نفسها

يا قرة العين عني إن سألت جوى	قد بتُّ في ألم من شدة الوهن
أكابد الضرّ والأجفان ساهرة	هيهات ماذاق طرفي لذة الوسن
والآن لم آلُ مثل الليل باسندي	الحمد لله ربي واهب المنن
جزاكم الله عنا كل مكرمةٍ	من فضله ووقاكم سائر المحن



طالت غيبة الأمير الشاعر في المعارك والجهاد وانقطع عن عائلته وأولاده نحو سنة . وكتب له ابنه الأكبر باسم الأسرة يتشوق إليه فأجابه بالأبيات التالية

بنيّ ! لئن دعاك الشوق يوماً	وحنّت للّقـا منّا القلوبُ
ورمتَ بأن تنال منيَ وصلاً	يصحُّ بعيده القلبُ الكئيب
فإني ، منك ، أولى باشتياق	وناري في الفؤاد ، لها لهيبُ
وإن أخفي اشتياقي في فؤادي	فإن الشوق ، يكتمه الأريب

عتاب مريض غريب

مرض العالم الكبير السيد محمد الشاذلي يوما
واستبطأ عيادة إخوان الأمير له فكتب يعاتبهم :

مرضت غريباً بين قوم أعزة فكلهم عن زورتي متمنع
كأنهم في غيبة عن ثوابها أو الطرق لم يعرف لها الدهر مهيع
إذا كنتَ مصحوبَ السلامة ؛ أقبلوا
وإن كنت في سقم ؛ فربعك بلقع
فهذي خصال البعض عند مريضهم
فمن لي عند القوم بالعود يشفع
ولولا اصطباري واحترامي إليهم
لكنت لهم أفعى بشعري ألسع
ولولا احترامي للحبيب وآله
لكان كلامي للجبال يزعزع

لا تعجل بلومك

واطلع الأمير على العتاب المتقدم فردّ عليه
باسم إخوانه بالقصيدة التالية

فدَيناك ، لا تعجل بلومك ، وانتظر وحقك ، إن العتب ، للقلب ، أوجعُ
لعلّ لنا عذراً ، يدافع عتبنا وصدرك ، في تلك المعاذير ، أوسع
وإن من الأعذار ما ليس ذكره يليق . ومنه مهجتي تتقطع
ولست غريباً بين قوم أحبة مكانك فيهم ، من بني الدهر ، أرفع
فكم من حزينٍ ، من بلائك والهٌ
يبيت على فرش الضنا ، يتوجع
وجمعي بكم ، يبقون جمع سلامة
بدارٍ بها ، ما للتفرق منزع
وجئت بـ « لولا » فاعلاً لجوابها
على أنها ، في النحو ، قد قيل تُمنع[1]

---

(١) ما بعد « لولا » يرفع على أنه مبتدأ لا فاعل . وهذه الملاحظة النحوية من الأمير تومىء إلى تبحّره في علم الآلة . على أنه قد يقع هو نفسه فيما عابه على سواه ، وكثيراً ما قدّم المفعول على فعله لغير سبب بلاغي كما في البيت الذي بعده

وإن كنتَ لسَّاعاً ، فكن خير حيّة

وكن نحلةً ، ترياقها السمَّ يدفع

ندمت على عتبي

تأثر الشاذلي بقصيدة الأمير المتقدمة ولا تعجل بلومك ، فبعث إليه بالمقطوعة التالية معتذراً

سلام يفوق المسك والندّ عرفه — يعمّ حمى قوم كرام المحافل

كرام إذا ما العبد بينهم جنى — حبوْه بعفوٍ شاملٍ ومآمل

بقدر عظيم الذنب يعظم عفوهم — فأكرم بهم قوماً كرام الشمائل

على قدر نقصي عاملوني بفضلكم — أيا كاملين الوصف لست بكامل

ندمت على ما كان منّي ونادم — عقيب وقوع الفعل ليس بفاعل

على أن عقل المرء يذهب للقضا — فذو العقل ذو علم وليس بجاهل

***

الندم والملامة

وأراد الأمير أن يخفف على الشاذلي وقع الندم فبعث اليه بالقصيدة رداً على مقطوعته « ندمت على عتبي » .

خليليّ ! لا تندم على العتب للحبّ فإن خفيف الحبّ ، أنفع بالطبّ
فما ذاك مكروهٌ ، ولا بمحرّمٍ بشرع الهوى. بل ذاك فرض على الصبّ
سبيل الهوى : هجرٌ ، ووصلٌ ، وفرقةٌ وجمعٌ ، وخلفٌ بالزيارة ، والعتب
وهذي ، دواع للعقاب كثيرة لذا كان طول العتب ، ألزمَ للحب

وقد قيل : يبقى الودُّ ما العتب باقياً

فلله ما أحلى مقـــال ذوي اللب :

« إذا لم يكن في الحبّ سخط ، ولا رضىً

فأين حلاوات الرسائل والكتب » ؟ !

وأطيب أيام الهوى ، يومك الذي

تروّع بالتعنيف . فيـــه ، وبالسبّ

يا كثير البعد

شعر الشاذلي بتحسن في صحته فغادر المشفى ولم يشعر به الأمير ولم يبلغ صحابه . وعاده الأمير فلم يجده فبعث اليه بالأبيات التالية

يا مـلولاً لم يمل   كيف كان اليوم حالُك ؟!

يا كثير البعد عنّا   كان كالغدر ارتحالك

كنت مِن ذا في أمان   فبدا اليوم محالك



وردّ الشاذلي على الأمير بالأبيات التالية

لا أملّ الحب إن كان يملّ   لست أنساه بعيداً أو قريب

ليس يرضى الحبّ بالغدر ولم   يهوَ قلبي غيركم قط حبيب

حالكم ، والحال مني ، واحد   وعليكم ، سادتي ، مني رقيب



كان الأمير قد اتخذ عادة يدعو أصحابه إلى نوع من طعـــام عودهم إياه . ثم حصل ما أوجب قطعه ؛ فبعث اليـــه الشاذلي بالأبيـات التالية عاتباً ومذكراً :

فرضـــتم عليـــكم التقيّم ســـنةً
تؤدونهـــا بعـــد الفراغ من الفجر

طلبتم بها خيراً وما رمت فعلهـــا
وأحسنتم والحسن منْ شيم الحرّ

وبعد فترتم والفتـــور مخـــالف
طبـــاع كـــريم خصّه الله بالأجر

رزقتم مناكم لِمْ ترومون قطعه ؟!
ونظمي له ، لا شك ، أحسن في الشعر

ترك العادة ذنب

وأجاب الأمير على عتاب الشاذلي وتذكيره بالاعتذار التالي :

سلام عليكم ، دائم متتابع ... له نفحة ؛ من دونها المسك والعطرُ

وبعد ؛ لعذرٍ قد قطعنا عوائداً ... تعودتها ، يا أيها الماجد الحر !

وإلا ؛ فإثبات الرغائب شرعنا ... نرى تركها ذنباً ، له يطلب الغفر

ولو أنني قاسمتكم كل مالنا ... كما قاله الأنصار ، والفاضل الحبر

لما جئت في معشار عشرِ حقوقكم ... ولو كان ذا شيء يؤدى به شكر

★★★

الجوع براني

طال مرض الشيخ الشاذلي وطالت حميته عن الطعام. وكان الأمير يلاطفه فيؤاكله من طعام الحمية حتى ضجر وأثّر به الجوع فكتب إليه يصف حاله ويدعو له بسرعة الشفاء ليتيسر له من الطعام القوي ما يلذه

أما آن للخل المريض بأن يبرا ؟!
فإن صحيح الجسم ، منه شكا الضرا

توالت عليه ، جوعةٌ بعد جوعةٍ
أخوكم ، لها ، قد صار . كالقلم المبرا

به وُكّل الجوعُ ، المعطّل للقوى
فلله ، ما أنكاه فينا ، وما أجرا !

إذا نمت ، أمسى لي ضجيعاً ، ملازماً
وإن قمت ، أضحى كالغريم ، بنا مُغرى

وقد عشت أياماً ، بظل جنابكم
فلله عيش ، ما ألذّ وما أمرا !

إلى أن دهانا الدهر يوماً بجده
بعادات بينٍ ، ما أحدّ وما أفرى !

ففرقنا جمعاً ، وكدّر صفونا
وجوّعنا جوعاً ، فقدنا له الصبرا

فإن شئت فلتبرا ، لعلك مدركي
وإلاّ ، فإن الجوع ، قد هيأ القبرا

بهذا أشار الناصحون ، لعلكم
ترقون ، أو تأتي لنا ، منكم ، البشرى

أكل الفيل

وردّ الشيخ الشاذلي على القصيدة المتقدمة بالأبيات التالية :

خليلي لا تجزع من الجوع إنه ... إلى كل معتلٍّ هو الغاية الكبرى
لأنك مصدوع وإن بتَّ آكلاً ... يثير صداعاً ذلك الأكل والصفرا
وعبدك إن يشفيه مولاه في غد ... سيأكل أكل الفيل فاهنأ بها بشرى
ليقضي الذي قد فات إذ كان واجباً ... وفي الشرع تقضى كل فائتة قسرا

هل للحب دواء

جرى حديث الحب في مجلس الأمير وهو بفرنسه واختلف فيه : هل هو طبيعة أم مرض ، وإذا كان مرضاً فهل له من شفاء؟! ونظم الشيخ الشاذلي هذه الفكرة الأخيرة وبعث بها إلى الأمير . قال :

أيا أهل فن الطب بالله خبروا ... أيوجد للصب النحيل دواء؟!
نهكت سقاماً لم أجد لي شافياً ... وقلبي من غير الخليل هواء ،
كلفت بها وهي الفريدة والتي ... تجمع فيها الحسن وهي ضياء
ولا عيب فيها غير فرط دلالها ... وفي القلب منها للتباعد داء
أريد وصالاً وهي تقصد ضده ... أيمكن للضدين ثم لقاء
وأسأل من ربي اللقاء فإنه ... قدير ولي في ذي الجلال رجاء

ليس للحب دواء

وعلق الأمير على أبيات الشيخ المتقدمة بالأبيات التالية :

سألت رجال الطب ، أخبر كلهم ... وهم أهل تجريب ، وأهل ذكاءِ

بأن سقيم الحب ، هيهات ! ما له ... دواء ، إذا ما الحب ، أصبح نائي

عسى ، ولعل الله ، أن يبرد الأسى ... فإن رجاء الوصل ، بعض دواء

ولو لم يكن للعاشقين تقرّب ... لوقت وصال ، ما بقوا لمساء !

وإن دام هجر الحب ، أو زاد بينه ... فذلك داء ، لم يزل بشفاء

وفي مَن مَضوا في شرعة الحب والهوى ... له أسوة ، فليصبرن لبلاء

***

زكاة العلم

نزح السيد يوسف بدر الدين المغربي إلى دمشق وتوطنها ، وسكن دار الحديث النووية . واتفق أن ادعى ملكيتها رجل رومي ، وجاء بحجج تثبت ملكيته ، ووضع يده عليها ، وجعل من قسمها الغربي خمارة يرتادها الفساق . فثار الشيخ يوسف ولجأ إلى دار الأوقاف فما صنعت شيئاً . ثم ما زال يتابع جهاده مع الجهات الحكومية والمسؤلين صعداً حتى حصل على « فرمان سلطاني » . بوجوب إعادتها للوقف . ولكن الحكام في دمشق – وقد لعبت بهم الرشوة – أرقدوا الفرمان وعطلوه . فلجأ إذ ذاك إلى الأمير عبد القادر فاشترى الدار ووقفها من جديد وسلمها للشيخ . وكانت لا تمرّ مناسبة إلاّ اهتبلها هذا الشيخ الوقور وقدم للأمير قصيدة يلمح بها شاكراً للأمير صنيعه . وفي أحد الأعياد أنشده قصيدة مطلعها

بك المسرة قد نالت أمانيها	يا نعمةً مالها شيء يدانيها
إن كان عيد لها تهنا بموسمه	فالعيد كونك يا أقصى أمانيها

فأجابه الأمير عليها بالقصيدة التاليـــة وهي التي علق عليها الشيخ بأبيات منها :

تطيب نفسي يا أقصى أمانيها	بحكمة منك يا مولاي يشفيها
من حبها ما عن الخيرات أقعدها	عن المعاصي التي للنار تهديها

أما قصيدة الأمير فتلك هي :

أتت مهنئة ، فلبين مهديها جلّت تراكيبها . دقّت معانيها

تدل بالحسن ، وإلا دلال حُق لها فما حوت مثلها يوماً مغانيها

ودبّ في الجسم من أنفاسها طربٌ

ديب حبي ، لهذا الخير ، منشيها

ليهننا بك عيدٌ . أنت شاهده

عيد النفوس ، إذا نالت أمانيها

يايوسف ! ردّ لي من قربكم نظراً

كردّه بقميص ، أنت مهديها[1]

لينشرح صدرك المملوء من حكمٍ

وطيّب النفس ، شهيّها ومنيّها

فأنت ، بين أخلاّء لهم أرب

تبقى . وإن مات ، قاصيها ودانيها

ولتعطنا من زكاة العلم ، واجبة

أنت المشيّد دار العلم بانيها

أبقاك ربُّ العلا ، في نشر حكمتها

رغماً لأنفِ معاديها وشانيها

(١) اشارة إلى ردّ بصر يعقوب بقميص يوسف

أنا مخلص للود شاكر

امتدح الشيخ أمين الجندي ، مفتي الشام ،
الأمير بقصيدة مطلعها

أمولاي يامن غدا مفرداً بمجد له الله قدراً أهّله
ويا سيد الناس في عصره وأوفى كريم لمن أمّله

فرد عليه الأمير بالقصيدة التالية :

أحلى المديح ، مديح خلّ فاخر أقواله ، تنبي ، كدرٍّ باهر
عمّا أجنّ ، من الوداد ، جنانه ألفاظه ، تترى ، كشهدٍ قاطر
تكسو الملاحةُ ،والطلاوة ، وجهها فالودّ من أرجائها ، كالعاطر
يا صاحِ ! خانه الأفاضل كلهم مِن كل شهم كاتب ، أو شاعر
عندي لكم ، بين الضلوع مودةٌ محفوظةٌ ، ومصونةٌ للغابر
كن كيف شئت، فأنتَ ،أنتَ أمينها ما بين بادي عربها ، والحاضر
ما الدرُّ ، إلا ما أتانا منكمُ أنا مخلص للود ، أول شاكر

أنفاس أصحابي تحييني

القصيدة التالية ردٌّ ، بعث به الأمير ، على قصيدة طويلة امتدحه بها العالم الحاج مصطفى شلبي البغدادي . وقد مرّ بدمشق فأكرمه الأمير واجلّه. والقصيدتان معايدة متبادلة بينهما بمناسبة عيدالضحية :

بديعةُ الحسن ، بالأضحى تهنيني ... تزهو بحسنٍ ، علا ، من غير تزيين

تميس كالغصن ، إذ مرَّ الشمال به ... أو شاربٍ ثملٍ ، من خمر دارين

تراه نشوان ؛ إذ دبَّ الشمول به ... يميل من طربٍ ، ميلَ الرياحين

هيفاء ، يبدو لنا ، من وجهها قمرٌ ... من سحب فاحمها ، بانت بتلوين (١)

ترمي بألحاظها ، عن قوسِ حاجبها ... تصيبني . ثم تسبيني ، وتكويني (٢)

وقد بدتْ لي،طلوعَ الشمس ،مسفرةً ... فطال ترداد عيني ؛ بين شمسين (٣)

---

(١) الفاحم ـ الشديد السواد . وصف شعرها : كالسحب الفاحمة شديدة السواد يبدو من بينها وجهها المنير المشرق كما يتبدى القمر من فرجات الغيوم

(٢) شبه اللحظ بالسهم . والحاجب بالقوس . والنظرة اللاحظة بانطلاقة السهم عن قوسه ؛ تصيبه فتجرحه وتكويه

(٣) قابلها عند طلوع الشمس من الشرق فاحتار بين الشمسين إلى أيهما ينظر ، وبأيها يعجب ، الشمس الحقيقية تشرق فتضيء العالم بنورها الضاحي ، وحبيبته تشرق بنور جمالها في آفاق القلوب فتضيء لها الآمال . وتملأها إعجاباً وتقديراً

ولست أدري ، أسُكري ، من نوافجها

أم تلك ، أنفاس أحبابي ، تحيّيني[1] ؟!

أحبتّي ! لكمُ صفو الوداد ، كما محضتموني وداًّ ، ليس بالدون[2]

لا زلتمُ منهلاً ، تحيا العطاشُ به ومنزلاً ، لعفاة الخلق ، في الحين

أحيا إلهي ، أحبائي . وزادَ لهم فضلاً ، وأنزلهم أعلى العليين

واحفظ ، إلهي ، ما أوليتهم ، كرماً وقرّ أعينهم : دنيا مع الدين

ودافع السوء عنهم ، يا إلهي ! ولا تجعل سبيلاً عليهم ، للمعادين

واجعل سرورهم صفواً ، بلا كدرٍ واجعل زمانهم ، أيام عيدين

واسترهم برداء الحفظ . يا أملي ! بحرمة السرّ : بين الكاف والنون[3]

بجاه خير الورى ، والتابعين له آمين ! آمين ! ياذا الفضل ، لبّيني

★★★

---

(١) النوافج : أكياس المسك أو العنبر . يتعجب من سكره ، هل سكر بشميم المسك والعنبر ، أم بأنفاس الحبيبة

(٢) الدون ـ القليل ، الضئيل

(٣) سرّ الكاف والنون ـ أي السرّ الكامن وراء أمر الله تعالى : إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن ، فيكون

رباط الود مشتد

الطيب بن المختار ، ابن عم الأمير ؛ كان يحبه كثيراً ، ويبعث اليه في كل مناسبة بشعر يمتدحه فيه ، من ذلك ؛ قصيدته التي يقول في مطلعها :

أكلّ خليل لايدوم له عهد — أم انفردت في حلّ ماعقدت هند؟
أراها استحالت حالها وتنكرت — معارفها والطرف عني مرتد !!

فردّ عليه الأمير بالأبيات التالية

أما والذي ، تعنو لهيبته الورى — وجلّ اعتزازاً ، أن يكون له نِدُّ
لأنتم، وإن شطّ المزارُ بشخصكم ، — أودُّ من القربى. وأدنى إذا عُدّوا
فكم من بعيد الدار ، نال مراده — وكم من قريب الدار ، ما ناله ودُّ
ألا فلتطب نفساً ، بطيبِ ودادنا — فإن رباط الود ، تالله مشتدُّ

★

يراع ينفث سحراً

امتدح الشيخ أبو النصر الطرابلسي الأمير

بقصيدة طويلة مطلعها

هيفاء قد نضجت بمسك عاطرٍ كيما تقبل ذيل عبد القادر
من آل بيتٍ قد غدوا سفن النجا لمن التجا من لج بحرٍ زاخر

فبعث اليه الأمير بالقصيدة التالية شاكراً ومادحاً :

أتاني كتابٌ ، لا يملُّ سماعُه
كتاب ، كوشي الروض ، تزهو بقاعُه
يزيد على الترداد ، طيباً ولذةً
يعزُّ علينا طرحه ، ووداعه
يدبُّ دبيبَ الخمر ، في جسم سامعٍ
فيطربنا إسماعه ، وسماعه
كتابٌ ، أتاني ، حافظَ الود ، وافياً
وإن الوفا ، أضحت ، يباباً ، رباعه
كتاب أبي النصر ، الذي فاق منطقاً
وينفث سحراً ، بابليًا ، يراعه

فلا زال في أوج الكمال مخيماً

يضيء علينا ، نوره ، وشعاعه

ولا زال مَن يحمي الذمار ، بعزةٍ

ولو جمعوا ، ما يستطاع دفاعه

ولا زال محجوجَ الأفاضل ، كعبةً

وممدوحةً أفعالُه ، وطباعه

ولا زال سيّاراً إلى الله ، داعياً

بعلم ، وحلمٍ ، ما يضمُّ شراعه

ولا زال للعلياءِ ، أرفعَ رايةٍ

وبشراه ، مبذول لنا ، ومتاعه

فأبقاه ، مَن رقاه ، عينَ زمانه

وحامل كُل الكلّ[1] منا ، وساعه

★ ★

---

(١) الكلّ : الحمل

باللحظ تخدش وجنة

كان الشاعر في الطائف ، وجرى حديث الخدود المشرّطة فاستهجنها الأمير . وانشده بعض الأدباء أبياتاً له في تشريط الخدود منها :

رأيت لها شرطاً على الخد قد حوى جمالاً وقد زاد الملاحة بالقرط
فقلت مرادي اللثم قالت بخلوةٍ فقبلتها ألفاً على ذلك الشرط

فأعجب الأمير بالتورية ولكن لم يعجبه التشريط وقال :

أقول لقومٍ ، لاتفيد نصيحتي لديهم ، ولو أبديت كلّ الأدلةِ :
ألا ! فاتركوا وردَ الخدود وشأنه فتخديدُكم في الخدّ ، أقبح فعلةِ
أيعمد ذو لبٍّ ، لخدٍ مورّد ويقسمه عمداً ، إلى شرّ قسمة
ومادحُ شرط الخدّ في السود صادقٌ وأما بخدّ البيض ، فالقبح عمدتي
أما يختشي ، من أن يكون مخدداً ويدخل ، في من حاز ، أفظع قولةِ
فبا للحظ ، لا الموسى ، تخدّشُ وجنةٌ فياويلتا منه ! ويا طول حسرتي !
وإني لأهوى ، كلّ خدّ مورّدٍ زها . قطُّ ، لم يمسسه موسى بخدشة



نظم الأمير الأبيات الآتية ملغزاً في الشيب والهرم . وتناقلها الأدباء في عصره بالمعارضة والحفظ . قال الأمير :

أقول ، على صدقٍ ، لأهل النهى طراً
ولست بمستثنٍ لئيمـــاً ، ولا حرا :
ألا خبروني ! أين ضلّت عقولكم
وكلّكُم يستهجنُ الشرّ والضرّا !
ويغفل عنـــه وهو منتبه له
ويطلب هـذا الشرّ ، أعظم به شرّا
وحينئـذٍ يقلاه[1] كل مصاحب
ومَن مسّ هذا الضرّ ، هيهاتَ أن يبرا

---

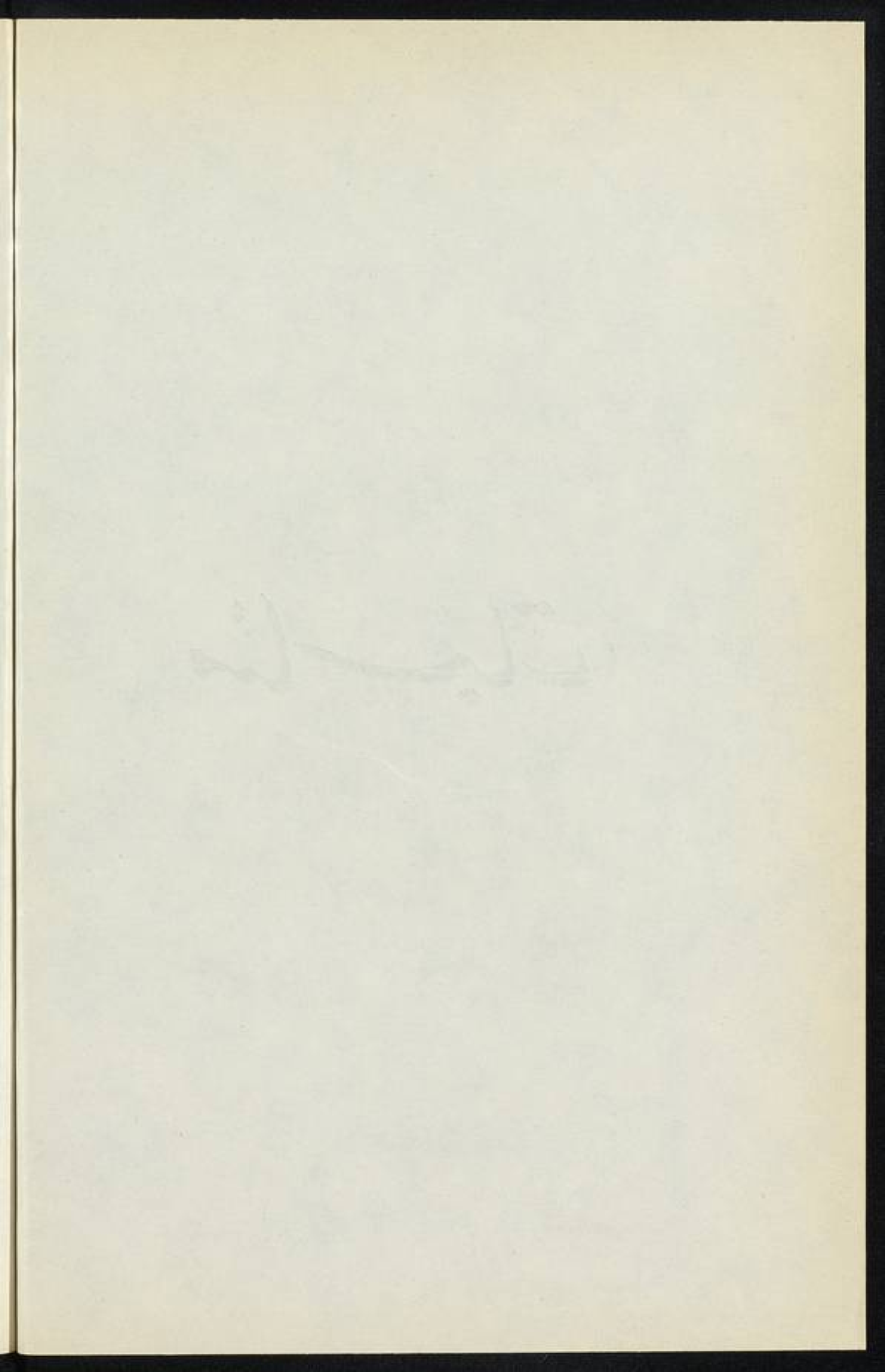
(١) يقلاه : يجفوه ويبتعد عنه .

الكبر والهرم

عارض الشيخ محمد المبارك الجزائري أبيات الأمير المتقدمه وحلّ اللغز بلطف فقال :

أيا جهبذاً !! دقّت معاني رموزه ورقّت ، فلم يدرك لها ذو الحجا سرّا
لقد ضلّ فكري في مهامه لغزكم ولم يلفَ مَن يوليه مِن طيّه نشرا
وما هو إلاّ كنز درّ معارف له رصدٌ يحمي جواهره قسرا
فحاولت أن أجلو براقع وجهه وأكشف عن معنى بلاغته السرّا
فخيّل لي أن الرئاسة سرّه وخلت إذن أني أحطت به خبرا
ولا ريب أن الجاه أعظم مشتهى على أنه شرٌ . وأعظم به شرّا
ومن بعد ذا أمعنت فكري فلاح لي
هو الكبر المستلزم البأس والضرّا
وهــذا لعمري ليس يرقى سليمه
ولكن ينال الأجرَ إن أحرز الصبرا
فأسأل ربَّ العرش يحفظ ذاتكم
بجاه ختام الرسل خير الورى طرّا

مناسبات



طال ليلي ، يا أحبائي !!

اشتدت الأزمات على المجاهدين . واضطر كثير منهم الى الفرار بأنفسهم . ولحق بعضهم بمراكش إذ كانوا قد بعثوا بأهليهم اليها منذ زمن . ومنهم إخوته الثلاثة : سعيد ومصطفى وحسين . فبعث إليهم بهذه القصيدة متشوقاً عام ـ ١٢٥٨ هـ ـ ١٨٤٢ م

يا سوادَ العين ! يا روح الجسد ! ... يا ربيع القلب ! يا نعم السند !

كنت لي قرة عين ، وبها ... هام قلبي ، لا بمالٍ وولد

فرمى الدهر بعيني أسهماً ... مذ نأتيم . لا أرى فيها أحد

أيروق الطرف شيءٌ بعدكم ؟! ... لا وربِّ البيت ، في هزلٍ وجدّ

مذ ترحلتمْ ، أذبتم مهجتي ... ودموعي ، فائضات ، من كمد

فنيَ الصبرُ . ولم يفن الجوى ... ما أراه فانياً ، حتى الأبد

وذوى ، ما كان رطباً ، يانعا ... ووهى العظمُ . ولم يبق الجلد

مذ تواريتم ؛ توارى فرحي ... ما يسرُّ القلب ، في أخذٍ وردّ

فحياتي بعدكم ، مُذ غبتم ... من مجازٍ مرسل ، عندي ، يعدّ (١)

---

(١) يشير إلى اعتبار ما كان في المجاز المرسل

طال ليلي ، يا أحبـاي ! ولا يعلم الحال ، سوى الفرد الصمد
كم أنادي ، حـين يبدو صبحه يا سعيد ؟! هل خيالٌ لي يَرُدّ ؟!
فترد الروح للجسم . ويـا مصطفى ! هل من دواء للكمد ؟!
شاقني حبُّ حسـين ، شاقني مـا لحكم الله في القلب مَرَدّ
هل يجود الدهر من بعد النوى باقتراب ؟! يحيي ميتاً لم يعـد
فـإذا ، لي تمّ ، ما أمّلتُه ، عاد إنسـاني وروحى للجسد
يا ذوي القربى ! قريباً من أب ، أنتم ذخري . و كنزي ، والسند
لي كونوا ، مثلما كان الأولى سلفوا ، لي ، أهلَ سعيٍ لا يُرَدّ
فإذا مـا أقبلت ؛ فلتبذلوا وإذا ما أدبرت ؛ فارضوا بوِدّ
وعليكم ؛ من سلام صيّبٍ طيّب ، يترى[1] إلى غـير أمد
يشمل الأحبابَ ، أنى قد ثووا كل حبّ لي ؛ هو الصنو الأودّ

★★★

(١) يترى : يتوالى

تحصنت لا خوفاً من الموت

أمر بتشييد حصن « طازة » فشيد بوقت قريب جداً ، لم يكن منتظراً . فنظم الأبيات التالية لتنقش على باب الحصن

الله أعلمُ ، أن هذا لم يكن
منّي ، على الأمد الطويل ، دليلا
كلا . وإن منيّتي ، لقريبةٌ
منّي . وأصبح في التراب جديلا [1]
ورضا الإله ، هو المنى . ويكون من
بعدي انتفاع الخلق ، ثَمَّ [2] طويلا

★★★

(١) الجديل : القتيل المجندل المضرّج بدمائه
(٢) ثَمَّ : هناك

الباذلون نفوسهم

بعث الأمير بهذه القصدة إلى جيوشه في جبال «جرجرة» للشكر والتشجيع. وكان الأعداء قد أرجفوا بموته. فلم يعبأ بذلك، واستمر يجاهد وينظم الشعر:

يا أيها الريح الجنوب ! تحملي

منّي تحيـة مغرمٍ ، وتجملي

واقرِ السلام،أهيلَ ودّي.وانثري

من طيب مـا حمّلت؛ ريح قَرَنْفـُل

خلّي خيام بني الكرام . وخبّري

أنّي أبيتُ بحرقـةٍ ، وتبلبل

جفنيّ ؛ قد ألِفا السهاد ، لبينكم

فلذا ؛ غدا طيبُ المنام ، بمعزل

كم ليلةٍ ، قدْ بتُّها ، متحسراً

كمبيت أرمدَ ، في شقـا ، وتململ

سهران ، ذو حزنٍ ، تطاول ليله
فمتى أرى ليلي ، بوصلي ، ينجلي ؟!

ماذا يضرُّ أحبَّتي لو أرسلوا
طيفَ المنام ، يزورني ، بتمثّل ؟

كل الذي ألقاه في جنب الهوى
سهلٌ . سوى بَيْنِ[1] الحبيب الأفضل

أدّي الأمانة يا جنوب[2] ! وغايتي ؛
في جمع شملي ، يا نسيم الشمأل !

واهدي ، إلى مَن بالرياض ، حديثهم
أذكى ، وأحلى ، من عبير قرنفُل

تهدي إليَّ طرائفاً ، وظرائفاً
ولطائفاً ، بتعطُّر وتعسُّل

حاولت نفسي الصبر عنهم ، قيل لي :
مه ! ذا محال . ويك عنه تحوّل !

كيف التصبُّر عنهم ؟! وهمُ همُ
أرباب عهدي ، بالعقود الكمل !

---

(١) البين : البعد
(٢) الجنوب: ريح الجنوب

أيحلّ ريبُ الدهر ما عقدوا ؟! وكم
حلّت عقودي ، بالمنى المتخيّل !

تفديهم نفسي . وتفدي أرضهم
أزكى المنازل . يا لها من منزل !

أفدي أناساً ، ليس يدعى غيرهم
حاشا العصابة ، والطراز الأوّل[1]

يكفيهم شرفاً ، وفخراً باقياً
حملُ اللواء الهاشمي ، الأطول

قد خصّهم ، واختصهم . واختارهم
ربُّ الأنام ؛ لذا ، بغير تعمُّل

همْ بالمديح أحقُّ . لكن ، ربما
ضاعت حقوقٌ بالعدا ، والعذّل

إن غيرهم بالمال شحّ ، وما سخا
جادوا ببذل النفس ، دون تعلل

الباذلون نفوسهم ، ونفيسهم
في حبّ مالكنا العظيم ، الأجل

---

(١) يرمي في هذا البيت إلى بيت حسان بن ثابت المشهور : شمُّ الأنوف من الطراز الأول

كم يضحك الرحمن من فعلاتهم
يوم الكريهة ! نِعمَ فعل الكمّل !

الصادقون ، الصابرون ، لدى الوغى
الحاملون ، لكلّ مالم يحمل

إن غيرهم ، نال اللذائذ ، مسرفاً
هم يبتغون قراع كتب الجحفل[1]

وألذّ شيءٍ عندهم ؛ لحم العدا
ودماؤهم ؛ كزلال عذب المنهل

النازلون بكل ضنكٍ ، ضيّق
رغماً على الاعدا ؛ بغير تهوّل

لايعرف الشكوى صغيرٌ منهم
أبداً . ولا البلوى ؛ إذا ما يصطلي[2]

ما منهم ؛ إلاّ شجاع قارع
أو بارع ، في كل فعلٍ مجمل

كم نافسوا ، كم سارعوا ، كم سابقوا
من سابق ؛ لفضائل ، وتفضّل

---

(١) كتب : جمع كتيبة .
الجحفل : الجيش الكثيف
(٢) يصطلي : يستدفيء بالنار . ويكني بالاصطلاء هنا عن خوض المعارك ونار والحروب

كم حاربوا ، كم ضاربوا ، كم غالبوا

أقوى العداة ؛ بكثرة وتموّل

كم صابروا ، كم كابروا ، كم غادروا

أعتى أعاديهم ؛ كعصفٍ مؤكل

كم جاهدوا ، كم طاردوا ، وتجلدوا

للنائبات ؛ بصارمٍ وبمقوَل[1]

كم قاتلوا ، كم طاولوا ، كم ماحلوا

من جيش كفرٍ ؛ باقتحام الجحفل

كم أدلجوا[2] كم أزعجوا ، كم أسرجوا[3]

بتسارع للموت ؛ لا بتمهّل

كم شرّدوا ، كم بدّدوا ، وتعودوا

تشتيت كلّ كتيبةٍ ؛ بالصيقل[4]

يوم الوغى ؛ يوم المسرة عندهم

عند الصياح ، له مشوا بتهلّل

---

(١) المقول : اللسان

(٢) أدلج : مشى ليلاً

(٣) أسرج : وضع السرج على ظهر الفرس استعداداً للركوب

(٤) الصقيل : السيف المصقول الحاد القاطع

فدماؤهم ، وسيوفهم ؛ مسفوحـــةٌ

ممسوحة ، بثيـــاب كلّ مجندل[1]

لا يحزنون لهالك . بل ، عندهم

موت الشهادة ، غبطةُ المتحوّل

ما الموت بالبيض الرقاق نقيصـــةٌ .

والنقص عندهم ، بموت الهمّل[2]

يارب ! إنّك في الجهاد أقمتهم

فبكلّ خيرٍ عنهم ، فتفضّل

يارب ! يارب البرايا ! زدهمُ

صبراً ، ونصراً . دائماً بتكمّل

وافتح لهم ، مولاي ! فتحاً بيّناً

واغفر ، وسامح . يا إلهي ! عجّل

يارب ! يامولاي ! وابقهم قذىً[3]

في عين ، من هو كافرٌ ، بالمرسل

وتجاوزن ، مولاي ! عن هفواتهم

والطف بهم ، في كلّ أمرٍ منزل

---

(١) مجندل : قتيل الحرب المتطلخ بدمائه

(٢) الهمّل : المهملون ، الميت رغم أنفه

(٣) القذى : ماقرّح العين أو أجفانها مها دقّ وضؤل

يارب ! واشملهم بعفـو دائم
كن راضياً عنهم ، رضا المتفضل
يارب ! لاتترك وضيعاً فيهم
يارب ! واشملهم بخير تشمل
متوسلاً ، مولاى ! في ذا كلّه
متشفّعاً ، بشفيع كلّ مكمل[1]
وجهت وجهي ، في الأمور جميعها
لمحمد ، غيث الندا ، المسترسل[2]
صلّى عليه الله ، ما سحّ الحيا
والآل ، ما سيف سطا ، في الجحفل

---

(١) الشفيع : محمد « ﷺ » ... على ماذا يا ترى ؟! تدل كثرة هذه التوسلات ووفرة هذه الاستغاثات . ؟! كان الشاعر مؤمناً بأنه مفوّض من الله لقيادة شعبه إلى النصر ، مرسلٌ رغماً عنه ، شاء أو أبى ، لإتمام هذه الرسالة ، رسالة الجهاد في سبيل الله ، لإحياء الدين ومحق الكافرين !! هل تستيقظ روح عبد القادر ليرى شعب الجزائر بعد معاناة المذلة والقهر والاستعباد أكثر من قرن وثلث ؛ وهو ما زال يقاوم ليستخلص حقه وحريّته من بين فكي الذئب الفرنسي المستعمر ؟

(٢) يلاحظ في ختام القصيدة توسُّل لله تعالى بجاه رسوله محمد « ﷺ » وقد كانت العادة – وما زالت – في بعض بلاد الشمال الافريقي ، وفي بعض بلاد الجزيرة العربية كذلك ، أن يختم الشاعر قصيده بالصلاة على الرسول « ﷺ » ويتوسّل به للشفاعة . وهذا التقليد الفني ، مازال متبعاً في الأزجال العامية في جميع بلاد العرب الناطقين بالضاد ما عدا لبنان ، لغلبة المسيحية على سكانه

عذاب الأسر

ضاقت روح الشاعر في الاسار والتشوق إلى أهله وأصحابه وأوطانه ولكن المزار بعيد ومحرم. فكان يرسل توسلاته إلى الله وحده متشفعاً بالرسول الكريم. وهذه واحدة منها.

ماذا على ساداتنا[1] ، أهل الوفا ... لو أرسلوا ، طيف الزيارة ، في خفا

يترصَّد الرقبـاءَ ، حتّى يغفلوا ... ويكون مانعُ وصلنا ، ليلاً ، غفا[2]

فإذا تمكّنت الزيارة ، خفيةً ... يأتي مواعد وصلنا ، متلطفا

ويكون ، قبل حلوله ، أفرشته ... خدي . وطاءً للنعال ، وللحفا[3]

ويكون ، بيتَ نزوله ، قلبي ، الذي ... ـ وحياتهم ـ مِن حبّ غيرهم ، عفا[4]

ضيفٌ ؛ له نزُلٌ لديَّ ، كرامةً ... كبدٌ ؛ شواها البعد ، في جمر الجفا[5]

---

(١) السادات الذين يقصدهم بهذا البيت ، هم رجال الصوفية .

(٢) يتمنى زيارتهم ولو بالطيف حينما يغفل الناس فلا يراهم أحد .

(٣) وطاء : موطئاً . وفي هذا البيت منتهى التذلل للمحبوب

(٤) عفا : فرغ

(٥) ينزل هذا الضيف المحبوب في سويداء قلبه ، ويكرمه بتقديم كبده التي شواها حرّ البعاد !!

ياسعد ! إن كنت البشير بوصله ؛ فلقد أتيت على المسرّة ، والوفا
لو أنَّ نفسي لي ؛ إليك بذلتها وأراه بذلَ مقصّر ، ما أنصفا
وتكون ، ياسعد ! المساعدَ ، للّذي - من هجر من يهواه - صار على شفا[1]
لم يبقِ يومُ البين ، والهجر - الذي خلقا ، لتعذيب الأحبة - مسعفا
إلاّ صبـابته[2] ، وجسماً قد غدا ملقىً ؛ كشنٍّ[3] بالفلا ، لن يُخْصفا[4]
زفرات قلبي ؛ جمر نارٍ أُجّجت . منـه دموع العين ؛ فاضت ذرّفا
بمحاجرٍ من حاجر[5] أقذاء ؛ قد - طردت ضيوف الطيف ؛ جاءت طُوّفا[6]
هل من منامٍ ، للّديغ[7] ، بمرّةٍ فضلاً عن المرّات ؛ أو هل من غفا ؟!
ما إن تألق برق سلع[8] ، والحمى حتى تفيض النفس ، منه تأسفا
وأراه سيفاً صارماً ، وسط الحشا
فعلَ الافاعي . أو شهاباً ، ما انطفا

---

(١) شفا : حافة ومنزلق
(٢) الصبابة : البقية
(٣) الشن : القربة الصغيرة
(٤) يخصف : يرقع
(٥) حاجر : منزل للحجاج في البادية ، كثر ذكره في شعر المتشوقين إلى الحجاز من المسلمين .
(٦) يقصد بالبيت : أن عينيه فيها قذى مستمر لاتغمضان ولذلك فهو محروم من رؤية الطيف
(٧) اللديـغ : الملسوع بناب الافعى .
(٨) سلـع : مكان في الحجاز ، كثر ذكره في شعر المتشوقـين إلى الحج وزيارة قبر الرسول ﷺ .

يحكي زفيري رعـــده ، ورياحه

وبوبله ؛ حاكى دموعي ، الوكَّفا

وإذا جرى ذكر العقيق ، وأهله

أجرى العقيق[1] ؛ تأسفاً ، وتلهفا

يا أهل طيبة[2] ! ما لكم لم ترحموا

صبّاً ؛ غدا لنوالكم ، متكفّفا[3] ؟!

لا تجمعوا بين الصدود ، وبعدكم

حسبي الصدود ، عقوبةً . فلقد كفى

لم أدرِ شيئاً ، قبل معرفة الهوى

حبّي لكم ؛ ما كان قطّ ، تكلّفا

ماباالهم ياصاح ! لم يتذكروا

صبّاً كئيباً ، في المحبة مدنفا[4] ؟!

ما قيل : ذاك أسيرنا وقتيلنـــا

بين العوادي ، والأعادي ، مثقفا[5]

---

(١) العقيق الأول: مكان بالحجاز . والثاني حجر كريم أحمر ؛ كناية عن امتزاج الدموع بدم العينين لشدة البكاء

(٢) طيبة : من أسماء المدينة المنورة

(٣) المتكفف: الطالب المستعطي .

(٤) المدنف : المتهالك في حبه

(٥) المثقف : الطريح من جرح أو مرض

قلبي ، الأسير لديكم . والجسم ، في

أسر العداة ، معذباً ، ومكتفاً[1] !

حاشاكم ! الجميل ظني ، فيكم أن تشمتوا فيَّ العدوَّ ، المرجفا

ولطالما ، لامَ العذول ، بحبكم وأطال عتبي ، ناصحاً ، ومعنِّفا

ولكم جنى ، كيما يصرِّف وجهتي عن وجه ودّكم . ولم يكُ مُصرفا[2]

ويودّ ، لو أني سلوت هواكم فيكون لي خلاًّ ، ونياً ، منصفا

قلب الشجيّ ، كما علمتم إنــه لا ينثني ، عن حبكم ، متخوّفا

يبغي الوصال ، ولو تمزّق تالفاً

ويلذّ ، أن يلقى العذاب ، ويتلفا

يسري ، ولو أنّ الظلام عِداته

ويسير ، لو كان النهارُ المرهفا[3]

---

(١) لم يكن الأمير الشاعر في أسره مكتفاً كما ادعى هنا وانما كنى بالكتاف عن الحجر عليه في قصره بأمبواز ومنعه من مغادرته ، إلا بأذن ، كأنه مكتف ممنوع من الحركة .

(٢) في هذا البيت إشارة إلى المحاولات الكثيرة التي بذلها الفرنسيون لحمله على التنكر لاصدقائه وزعماء بلاده وبعض قبائله التي تنكرت له وخانته وأعلنت طاعتهـا للفرنسيين ولكنه كان دائم الايمان بشعبه ، صلباً لا يلين في حبّهم ، ويعتقد أن القوة أرغمتهم على ماظهر منهم إرغاماً .

(٣) المرهف : السيف . يكني به عن افتضاح أمره وقطعه .

ياسيدي ! يارسول الله !!

ياسيدي ! يارسول الله ! ياسنـــدي !
ويارجائي ! وياحصني ! ويامددي !

وياذخيرة فقري ! ياعياذي ! يا
غوثي ! وياعدّتي للخطب والنكد !

ياكهف ذلّي ! وياحامي الذمار ! ويا
شفيعنا في غد ! أرجوك ، ياسندي

لا علم عندي أرجّيه ، ولا عمـــل
أمام نجواي ؛ من هديٍ ومن رَشد

أبغي رضـــاك . ولا شيء أقدّمه
سوى افتقاري ، وذلي ، واصفرار يدي

إن أنت راض ، فيافخري ويا شرفي !
ماذا عليّ إذا واليت من أحدٍ[٣] ؟!

---

(١) تتمثل في هذه القصيدة نفسية الشاعر المتدينة المؤمنة البسيطة في أجلى مظاهرها .

أعيروني قلباً

سافر إخوته عنه وتركوه وحده يستسلم إلى آلام الأسر في فرنسة . وقد التجأوا حينئذ إلى مراكش فقال :

ألا ! إنَّ قلبي ، يوم بنتم [1] وسرتمُ غدا حائماً ، خلفَ الظعون ، يطيرُ

يقاسي مَرار الموت ، من ألم الجوى [2] فما لي ، إلاّ أنّةٌ ، وزفير

رحلتم ، وسرتم ، لو رحمتم ! فبينكم لحظّي يومٌ ، للبلاء ، عسير

وكنت ، ليوم البين [3] ، أعددت عدةً وفي الظنّ ، ما أعددته ، لكبير !

فخان الذي أعددته ، لفراقكم وولّت جيوش الصبر ، وهي غرور

فلو أنّكم ، يوم الفراق ، أعرتمُ قلوبكم لي ؛ إنّني لصبور !

---

(١) بان : بعد
(٢) الجوى : الحزن
(٣) البين : السفر

أعذب صحاح مكة

أطلقت فرنسة سراح الأمير الأسير، وخيرته في البلد الذي يطيب له، فاختار بروسه من أعمال الأناضول إلى جانب إستانبول ليعيش في حمى الخلافة الاسلامية بظل السلطان عبد المجيد. ووصل الى فروق فتقدم للسلطان بالقصيدة التالية تحية المقابلة الاولى: وفيها تظهر نفسية الشاعر بوضوح واضح كالطير الحبيس افلت من قفص فهو يرفرف ويزقزق ويغرد ويتراقص .. لا يعرف بأي وسيلة يعبر عن شعوره بالتحرر والخلاص من العبودية:

الحمد لله ؛ تعظيماً وإجلالا ... ما أقبل اليسر، بعد العسر، إقبالا

وما أتت، نفحات المسك، ناسخةً ... من المكاره، أنواعاً، وأشكالا

وأشكر الله، إذ لم ينصرم[1] أجلي ... حتى وُصلت، بأهل الدين[2]، إيصالا

وامتدّ عمري، إلى أن نلت من سندي ... خليفة الله، أفياءً، وأظلالا

فالله أكرمني حقاً. وأسعدني ... وحطَّ عني ؛ أوزاراً[3] وأثقالا

(١) ينصرم : ينقطع، ينتهي

(٢) كان الشاعر يعتقد أن الخليفة يمثل فكرة دينية وأن طاعته واجبة وجوباً دينياً.

(٣) الوزر : الحمل الثقيل

قدطال ماطمحت نفسي ؛ وماظفرت. لكنْ للوصل ، أوقاتاً وآجالا[1]

اسكن فؤادي ؛ وقرَّ الآن ، في جسدي فقد وَصلت ، بحزب الله ، أحبالا[2]

هذا المرام الذي ، قد كنت ، تأمله فطبْ مآلاً بلقياه . وطب حالا

وعش هنيئاً ، فأنت ، اليوم ، آمنُ مِن حمام مكة ؛ إحراماً وإحلالا

فأنت ؛ تحت لواء المجد ، مغتبطٌ في حضرةٍ جمعت قطباً ، وأبدالا

وتِه دلالاً . وهزَّ العطف من طرب وغنِّ ، وارقص ، وجرّ الذيل ، مختالا

أمنت من كل مكروهٍ ، ومظلمةٍ فبُح بما شئتَ ؛ تفصيلاً ، وإجمالا

هذا مقام التهاني ؛ قد حللتَ به فارتع ؛ ولا تخش ، بعد اليوم ، أنكالا

أبشر ؛ بقرب أمير المؤمنين . ومَن قد أكمل الله فيه : الدين إكمالا

عبدُ المجيد ؛ حوى مجداً . وعزَّ علَى وجلَّ قدراً . كما قد عمَّ أنوالا[3]

كهف الخلافة . كافيها . وكافلها وما عهدنا له في القرن[4] ، أمثالا

يارب ! ! فاشدد على الأعداءِ وطأته واحم حماه . وزِده ، منك ، إجلالا

وأظهرنْ حزبه ؛ في كل متَّجه وسددنْ منه ؛ أقوالاً ، وأفعالا

وابسط يديه ، على الغبراء ، قاطبةً وذلّلنْ ؛ كلَّ مَن في الأرض ، إذلالا ! !

---

(١) يرمي في هذا البيت إلى الكلمة المشهورة « الملاقاة لها أوقات » .

(٢) أحبال : جمع حبل

(٣) أنوال : جمع نوال وهو العطاء

(٤) القرن : العصر أي ليس في معاصرية مثيل له

فالمسلمون، بأرض الغرب، شاخصةٌ أبصارهم، نحوه؛ يرجون إقبالا

كم ساهرٍ، يرتجي نوماً، بطلعته وحائرٍ؛ يرتجي للحزن تسهالا[1]

فرع الخلائف. وابن الأكرمين. ومن شدّوا عرى الدين؛ أركاناً وأطلالا[2]

كم أزمةٍ فرجوا؟! كم غمةٍ كشفوا؟! كم فككوا، عن رقاب الخلق، أغلالا

هم رحمة لبني الإيمان، قاطبةً هم الوقاية؛ أسواءً وأهوالا[3]

أنصار دين النبي، من بعد غيبته في نصره؛ بذلوا نفساً، وأموالا

قد خصهم ربهم، في خير منقبةٍ ماخصّ صحباً بها، قبلاً، ولا آلا

كم حاول الصحب، والآل الكرام لها والله؛ يختصُّ، مَن قد شاء، أفضالا

مازال، في كل عصرٍ، منهم خلفٌ يحمي الشريعة؛ قوّالاً وفعّالا

حتى أتى دهرنا، في خير منتخب من آل عثمان؛ أملاكاً وأقيالا[4]

قد كنت مضمر خفضٍ. ثم أكسبني رفعاً[5]. وقد عمّني جوداً، وأفضالا

---

(١) تسهالا: تسهيلاً وتخلصاً من الحزن

(٢) الأطلال: بقايا الديار والمعنى أنهم رمّوا من مظاهر الدين ما رثّ. وشدوا ما وهن

(٣) أي هم الوقاية من السوء والهول. اليهم يلجأ، وبهم يعاذ

(٤) أملاك: جمع ملك، وأقيال: جمع قيل وكانت الكلمة لقباً يطلق على ملوك اليمن من حمير.

(٥) في هذا البيت، يظهر أثر علم النحو في شعر الأمير. فهو يكني بضمير الخفض، عن مذلته في دار الأسر. وفي إكسابه الرفعة، كناية عن الاحترام الذي لاقاه في حضرة السلطان

وبالإضافة ؛ بعد القطع ، عرّفني ... وحطَّ عنّي تصغيراً ، وإعلالا [1]

هدا ؛ وحقُّ علاه. كم أزاح. وكم ... أزال عني ؛ بمحض الفضل ، أثقالا

لا زال ، تخدمه نفسي ، وأمدحه ... مستغرق الدهر ؛ أبكاراً وآصالا [2]

أهدي مديحي ، وحمدي ما حييتُ - له ... أفادني أنعماً - جلّت - وإقبالا

جزاه عنّي ، إله العرش ، أفضل ما ... جزا به محسناً - يوماً - ومفضالا

***

(١) وكذلك يظهر في هذا البيت ما ظهر في سابقه من أثر النحو في شعره. ففي الشطر الأول يرمز إلى الظرف المقطوع إذ يبنى على الضم. كقولك: من قبلُ ومن بعدُ فإذا أضفت الظرف جُرَّ مع الاضافة كقولك: «من قبلِ الأمر ومن بعده».

وفي الشطر الثاني يشير إلى خفض قيمة المصغّر والمصاب بالاعلال. وكأنه يشير في البيت كله إلى خلاصه من داء الذل بالأسر حيث كان يشعر بالصغار والاعتلال؛ إلى دار الشهرة وعرفان مقامه في ديار السلطان العثماني.

(٢) أبكار: أوقات الصباح الباكر. والآصال: أوقات المساء قبيل مغيب الشمس.

توسلات ودعاء

اشتبكت روسيا بحرب مع الدولة العثمانية في شبه جزيرة القرم عام ١٨٥٣ وعرفت الحرب باسم هذه الجزيرة من بعد. وتدخلت فيها الدول الغربية كلٌ لمصلحتها وتساعدت بالمال والسلاح والجند والدسائس السياسية ... وهدف الجميع، تمزيق الدولة العثمانية واقتسام ممتلكاتها. أما المسلمون من جميع جهات الأرض؛ فقد أمدوا الدولة العلية بالدعاء، وقراءة البخاري!! والقصيدة التالية توسلات للباري تعالى نظمها الأمير الشاعر كي ينصر الله الدولة العلية العثمانية ويؤيدها على أعدائها ...!!!

يارب ! يارب ! يارب الأنام ! ومَن ... إليه مَفزعنا ؛ سِراً وإعلانا

ياذا الجلال ! وذا الاكرام ! مالكنا ... ياحي ! يامولياً فضلاً ! وإحسانا

يارب ! أيد، بروح القدس، ملجأنا ... عبد المجيد. ولا تبقيه[1] حيرانا

أبن الخلائف. وأبن الأكرمين. ومَن ... توارثوا الملك ؛ سلطاناً فسلطانا

أحيا الجهاد لنا، من بعد مادرست[2] ... وضاعف المال ؛ أنواعاً وألوانا

---

(١) لا، الناهية ؛ لم تجزم، وهذه ضرورة من أشنع الضرائر وأثقلها.

(٢) فاعل «درست» محذوف حذف إيجاز ثقيل جداً. أي درست معالمه.

فانصره ، نصراً عزيزاً ، لانظير له — حتى يزيدَ العدا : همّاً وأحزانا

واحفظ دلاه . وأرسل يا كريم ! له — من الملائك ، حفّاظاً ، وأعوانا

وانصر به الشرع . وارفع يارؤوف ! به — عن دينك الحق ، لاتعدمه برهانا

واجمع ، إلهي ! قلوب المسلمين ، على — وداده . أعلهِ . أعظم له شانا

به الصوابَ أصب . واجعل له فرجاً — بطانة الخير : أقطاباً وأركانا

واهدم ، وزلزل ، وفرّق ، جمع شانئه — واجعل فؤادهم ، بالرعب ملآنا

وانصر . وأيد . وثبت ، جيش نصرته — أنصار دينك ، حقاً ، آل عثمانا

الباذلون ، بيوم الحرب ، أنفسهم — لله ! كم بذلوا نفساً ، وأبدانا

والضاربون ، ببيض الهند ، مرهفة — تخالها في ظلام الحرب ، نيرانا

والطاعنون ، بسمر الخطّ[1] عاليةً — إذا العدوُّ رآها ، شرّعت بانا

والمصطلون بنار الحرب ، شاعلةً — مطلوبهم منك ، ياذا الفضل ! رضوانا

والراكبون عتاق الخيل ، ضامرةً — تخالها ، في مجال الحرب ، عقبانا[2]

---

(١) سمر الخط ، الرماح السمراء المنسوبة إلى الخط . وهي تحريف هاتا أو هاطا . وهي بلدة من بلاد الصين الشمالية كانت تجلب الرماح المصنوعة من خشب الأبنوس أو ما شابهه منها عن طريق خليج العرب . وقد عرفت إحدى الثغور باسمها ونسبت الرماح من بعدُ اليها . فقيل : رماح خطية . أي منسوبة إلى قرية الخط في الخليج العربي .

(٢) يستمد هذا البيت حتما من أبي البقاء الرندي في مرثيته الأندلس حيث يقول :

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة — كأنها في مجال السبق عقبانُ

جيش، إذا صاح صيَّاح الحروب لهم ؛   طاروا إلى الموت ، فرسانا ورجلانا[1]

هم الجبـال ثبـاتاً ، يوم حربهم   فصـابرٌ ، من عداهم ، صبره خانا

هم الليوث ، ليوث الغاب ، غاضبةً   والليث ، لا يُلتقىَ ، إن كان غضبانا

هم الألى، دأْبُهم شقٌّ الصفوف ، لدى   حملاتهم ، صار جيش الكفر ، دهشانا

الدافعون عن الإسلام كلَّ أذىً   بأنفسٍ قد غلت : قدراً وأثمـانا

كم غمّةٍ كشفوا ؟! كم كربة رفعوا؟!   وكم أزاحوا، عن الإسلام ،عدوانا؟!

يارب ! زدهم بتـأبيد إذا زحفوا   واقطع بسيفهم ، ظلمـاً وكفرانا

ألقِ السكينة ، ربي ! في قلوبهم   وزدهم ياإله العرش ! إيمـانا

وجهت وجهي[2] أنِّي مادعوت به   بأهل بدر ، حمـاةِ الدين ، أركانا

مَن الإله لهم ، قال : افعلوا . وذروا

ماشئتمُ . لكمُ ، أوجبت غفرانا[3]

أعني: الألى، صرّح الحفاظ، ذكرهم   باسمهم . تاركاً مَن خلفهم ، بانا

بقطبهم ، أحمد المختار ، مِن مضرٍ   وسيِّد الخلقِ ، أملاكاً ، وإنسانا

---

(١) الشطر الثاني يستمد من قريط ابن أنيف القائل :

قـوم إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم   طاروا اليه زرافات ووحـدانا

(٢) وهذه الجملة تستمد من دعاء القنوت: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض»

(٣) أهل بدر ؛ وعدوا بالجنة . ولهم على الله سبحانه وتعالى دالة خاصة ، لأنهم أول من نصر دينه في موقعة فاصلة اليها أشار أبو تمام في قوله ، وهو يمدح المعتصم بيوم عمورية :

إن كان بـين صروف الدهر من رحم   موصولة أو زمام غـير منقضب

فبـين أيامـك اللاتي نصرت بها   وبـين أيام بدر أقرب النسب

والمؤرخين والفقهاء بيوم بدر أبحاث قيمة جداً .

كذا خليفته الصدّيق ، ملجأنا وأعظم الناس ، إيمانا ، وإيقانا

وبالمكني أبي حفص ، الذي ، افتتحت به المغـــالق ، حتى صعبها دانا

وبالخليفـة : ذي النورين ، ثالثهم أعني بذلك : عثمان بن عفانا

وبالإمام ، إخي المختار ، ذاك علي مَن في الوغى ، بالعدا ، تلفيه فرحانا

وبابن عثمان ، عبد الله ، سيدنا وابن البكير ، إياسٍ ، ساد إعلانا

وحاطب ، وبلالٍ . ثم حمزة ، ذا عمُّ النبي ، كريم ، ساد قحطانا

بسعدهم . وأبي طلحةٍ . وسهلهم كذا سعيدٍ . ظهيرٍ ساد عدنانا

بصنوه ، وعبيـــد الله . ثم أبي حذيفة . وحبيب ، زاد رضوانا

بابن الربيع ، إلهي ! وابن رافعهم ، رفاعة . ثم زيد . سيداً كانا

وبالزبير ، أبي زيد . كذاك أبو لبابة الخيرِ ، مَن قد عزّ إخوانا

وبابن عوف . وعمرو ، عقبة . وكذا عبيدة ، مَن لدين الله ، قد صانا

وعامر . وخنيس . ثم عاصمهم . ثم ابن صامتهم ، مَن زاد إذعانا

عويمر . ثم عتبان . وحُقَّ لهم سيادةٌ . ومعاذ ، طاب أردانا

ومعوذ . وأخيه . ثم مسطحهم كذاك مالكهم ، مقدام ، ما شانا

قدامـةٍ . وهلال . لانظير لهم مرارةٍ . وأُبيّ : فضلهم بانا

إني توسلت ، يارب الأنام ! بهم أرجوك فضلاً ، وغفرانا ، وإحسانا

ثم الصلاة على المختار ، سيدنا ماصارت الشيّبُ ، يوم الحرب ، شبانا

نعم الأكرمين

أهداه السلطان عبدالمجيد الوسام المجيدي من الرتبة الأولى، ولم يكن يحلم بهذه الهدية الكريمة فقال :

ولم أرَ أعظم مِن نعمـــةٍ ... مُنحتُ . ولم تكُ لي في حساب

سأشكرها ، شكر وقت السرور ... – وأذكرها ، ذكر وقت الشباب

أيا سـابقاً ، بالذي لم يجل ... بفكري ، ثواباً . ونعم الثواب

كذا فلتكن ، نِعَمُ الأكرمين – ... تفاجى ، بلا منّةٍ أو طلاب

***

بمن أعتاض عنك

كان والي بروسه، خليل باشا، صديقاً حميما للأمير وقد تحول عنها، فحزن الشاعر لفراقه. والوالي هذا، صهر السلطان عبد المجيد. فقال في هذه المناسبة:

ألا فاقر الخليل، خليل باشا سلاماً طيباً، عبقاً، نفيسا

له قل: يا شقيق الروح! عنّي علامَ هجرت بلدتنا: برُوسا؟!

لقد كانت تفاخر كلَّ مصر وتطلع من شمائلكم، شموسا

فعادت بعدكم، شمطا عجوزاً وكانت، تجتلى بكم، عروسا

وعهدي، سوحها[1]، بالوفد ملأى فأضحت بعدكم، خلواً دروسا[2]

وكنت لنا بها غيثاً مَريعاً وكهفاً مانعاً، ضُرًا وبوسى[3]

وكان لنا الزمان بكم، ضحوكاً فصار لنا بفقدكم؛ عبوسا

بمن أعتاض عنك؟! فدتك نفسي! وكنت بقربكم؛ فرحاً أنيسا

---

(١) سوح: جمع ساحة. وهي الميدان المنفسح في وسط البلد تتصل به أو تتفرع عنه عدة شوارع.

(٢) دروس: جمع دارس. وهو الطلل

(٣) بوسى: مخففة من بؤسى لضرورة القافية.

علاء الدار بالجار

لم يستطع الشاعر الفارس أن يستقر في بروسة !!
إن الزلازل لا تفارقها أبداً . وهي معرضة في كل
لحظة لهزات قد تهدم الدور على سكانها . لذلك
فارقها وهو آسف على هجرانها لما تركت في نفسه
من أثر طيب ـ خلا الزلازل ـ .وجاء إلى دمشق
ليسكنها نهائياً . وقد بعث إلى أحد أصدقائه في
بروسة بالقصيدة التالية من دمشق متذكراً ؛فقال:

أبى القلبُ أن ينسى المعاهد من بُرْسا
وحبّي لها ، بين الجوانح[1] ، قد أرسى

أكلّفه سلوانها ، وهو مغرمٌ
فهيهات ! أن يسلو . وهيهات ! أن ينسى

تباعدتُ عنها ، ويحَ قلبي ! بعدها .
وخلّفتها ، والقلبُ خلفي ، بها أمسى

بلادٌ ، لها فضلٌ ، على كل بلدة
سوى ، من يشدّ الزائرون ، لها الحلسا

(١) الجوانح : عظام الصدر الحانية على القلب والرئتين والكبد .

فما جازها فضلٌ . ولا حلّ دونها.

سواها نجومٌ . وهي ، أحسبها ، شمسا

عليَّ ، محال ، بلدةً غيرها ، أرى

بها الدين ، والدنيا ، طهوراً ، ولا نجسا

وجامعها المشهور ؛ لم يكُ مثلُه

به العلم مغروس . به كم ترى درسا ؟!

وسلطانها ، أعني : الأمير رئيسها

به ، افتخرت « بُرْساً » . فأعظم به رأسا

ومنزله الأعلى ؛ حكى لي روضةً

به الفخر ، قد أمسى . به الفضل ، قد أرسى

بها آل عثمان ، الجهابذة ، الألى

أشادوا[1] منار الدين . وابتذلوا النفسا

ليبكهم للدين ؛ مَن كان باكياً

فما شام هذا الدينُ ؛ في عصرهم ، نحسا!

فكم عالمٍ فيهم؟! وكم مِن مجاهدٍ !

وكم من وليٍّ ؛ قد تخيَّرها رمسا ؟!

---

(١) أشاد : لغة ضعيفة في ؛ شاد

ألا ! ليت شعري . هل أحلُّ رياضها ؟

و « بنارباش »[1]، هل أطيب به نفسا ؟!

فيصبو بها ، في العيد ، من ليس صابياً

ويفرح محزون الفؤاد ، ولا يأسى

وكيف «جكركه»[2] بعدنا وقصورها ؟!

تراها الثريا ، إذ توسطتِ ، القوسا

ومن تحتها ؛ نهر جرى متدفقاً

يشابه ثعباناً ؛ وقد خشي الحسَّا

فهبني أسلو أرضها بتكلّف ؟!

فلست بسالٍ ، للأهالي . ولا أنسى

ومِن أجلهم ؛ حبّي لها . وتشوُّقي

وإن غلاء الدار ؛ بالجار ، قد أمسى

أناس ؛ بهم أهلي ، سلوتُ ، وبلدتي

وفي كل آنٍ ؛ قد رأى ناظري ، أنسا

وفارقتُ أهلي ؛ مذ تجمّع شملنـــا

وأمّنت ، لاغمّاً ، أخاف ، ولا نكسا

---

(٣) نار باش : اسم مكان في برسا

(٤) جكركه: من أرفع أحياء برسا ـ على عهده ـ وأجملها

مكارمُ أخلاقٍ . وحسنُ شمائلٍ

ولينُ طباعٍ . واللطـــافةُ ، لا تنسى

سقى الله غيثاً ، رحمةً وكرامةً

أراض[1] ، بها حلَّ الأحبةُ ، من بُرسا

★٥★

(١) أراض ؛ حقها النصب بفتحه تظهر على الياء في آخرهـا ولكنه حذفهـا لضرورة شعرية نافرة .

كريم يهنئ كريم

عبد الكريم الجزاوي من وجهاء دمشق وشعرائها المعاصرين للشاعر . نشر ديوان شعره وأهدى منه نسخة للأمير فقرظه بالقصيدة التالية . وقد مدحه لشعره ولانتسابه إلى السلالة النبوية الطاهرة . فكأنه يعدّه قريباً له لأن كلا عائلتيهما فرع من أصل دوحة واحدة .

فذا ، ديوان سيّدنا الكريم　　　سليل المصطفى ، عبد الكريم

مِن اللائي[1] ، تطيعهم القوافي　　　وتنقاد انقيـاداً ، كالغريم

وتألفهم ، معانٍ شاردات　　　دقيقاتٌ ، أرقّ من النسيم

لها ، في قلب سامعها ، دبيبٌ　　　دبيبَ البرء ، في ذات السقيم[2]

---

(١) اللائي : اسم موصول لجمع المؤنث . والعجيب أن الشاعر استخدمها هنا لجمع الذكور ، وهذا الاستخدام مستغرب في بابه. وليس له من مخرج حتى ولو بالاستناد إلى فكرة «كل جمع مؤنث»

(٢) يستمد هذا البيت من بيت أبي نواس بصراحة حين يقول :

فتمشّت في مفاصلهم　　　كتمشّي البرء في السقم

وتطربُ ، مَن يفرّ من المثاني[1] ... وتُرقص ، مَن يكدّر بالنديم

إذا هزّوا اليراعَ ، أتوا بسحرٍ : ... ذوو التبيان ، والطبع السليم

وإن هزّوا القنا ، ونضوا سيوفاً ... تظلُّ عداتهم ؛ مثل الهشيم[2]

نظرت كلامَه ؛ فبكيت حزناً ... وما شيمٌ ، لفضل ، بالسليم

ولكن مسكّن العبرات منّي ... بنجلهم وفخرهم سليم[3]

كَريم ، من كريم ، من كريم ... كريم ، من كريم ، من كريم[4]

إلى أبناء هاشم ، قد نمته[5] ... ذوو الأحساب ، والشرف العميم

فذخري ؛ حبهم عند احتياجي ... ولا يغني حميم ، عن حميم

*

---

(١) المثاني : العود أو القيثارة ، وهو من باب تسميته الكل باسم الجزء على طريقة المجاز المرسل ؛ لأن أوتار العود كلها مزدوجات .

(٢) الهشيم : الزرع الجاف يتهشم لدى أقل صدمة . وهو هنا يكنى بالهشيم عن شدة الرعب والارتعاد والتحطم لأقلّ صدمة .

(٣) يبدو أنه يشير في هذا البيت والذي تقدمه إلى فقد العائلة شاباً منها اسمه سليم وفي ديوان السيد عبد الكريم مرثية له .

(٤) كثرة ترداد « كريم من كريم » لا تدل على ضعف الشاعر بقدر ما تدلّ على تعلقه النفساني بوصف الكرم وفعله . ولقد كان الأمير كريماً فعلاً ؛ يحب الكرماء ، كما يحب أن يوصف بالكرم ويمتدح به. وهو نفسه يقول في إحدى قصائده : « ومن قبل السؤال لنا نوال »

(٥) نمته : رفعته وربطته

محامد العلم

نشر السيد محمود الحمزاوي ، مفتي دمشق ، تفسيراً جمع من علوم عصره فأوعى . وقد أهدى الأمير نسخة منه فاطلع عليها وقرظ التفسير بالأبيات التالية ؛ والملاحظ أن الأمير تعمّد نظم القصيدة بالحروف المهملة إظهاراً للبراعة في معرفة الفاظ اللغة جريا على عادة عصره ، من العناية بالألاعيب اللفظية عن ابتكار المعاني . قال :

سرّح سوادك[1] ، والطروس[2] سماء ما للسماك[3] ، لدى العروس علاء[4]

حمداً ؛ لملهم أوحد العلماء ، محمــودٍ ، علوماً ، مالها إحصاء

هو أعلم العلماء . واحد عصره . هو ؛ طود سرّ هدىً ، له ، إهداء

---

(١) السواد : يكنى به هنا عن الحبر الأسود

(٢) الطروس : الأوراق

(٣) السماك : نجم معروف

(٤) معنى البيت : اكتب وأشرح افكارك وحلـق بمعانيك وعلومك ، وارتفع إلى السماك ؛ إلى السماء فمعانيــك ؛ عروس المعـــاني . وآثارك العلمية ؛ سيـــدة الآثار وعلاك ؛ لا يتسامى اليه عالم .

وهو الأمام . وأهل كلّ محامدٍ   مادعد؟ ماعلوى؟ ؟ وما أسماء ؟!

أهدى الورى، السحر الحلال . وكم له   همم ، لها دوماً عُلَى ، وولاء [1]

الله ؛ أولى آل طه ، سؤدداً   ومحامداً . لعلومها إملاء

والله ؛ ودهم . وأعطاهم حمىً :   سراً ؛ علاه ؛ للسماك سماء

لله ! ما أحلى ، وأملح مورداً   أهداه . وهو إلى الهموم ؛ دواء !

***

---

(١) روي الشطر الثاني أيضاً : « همم له دوماً عطا وولاء »

هدية وشكر

كان الأمير على صلة طيبة جداً بآل الحمزاوي للجوار أولاً ، ولصلة النسب ثانياً . كلاهما ينتسب إلى السلالة النبوية المباركة . وكان التهادي بينهما مستمراً مع كل مناسبة . وقد بعث الأمير مرة إلى السيد محمود الحمزاوي مفتي دمشق هدية وأرفقها بالأبيات التالية .

تفضّل بالقبول لها . فإني أرى الدنيا ، جميعاً ، دون قدركْ
لأنك ، بضعة المختار ، صرفاً ففخر الخلق ؛ طرّاً ،دونَ فخرك
وليس الناس ، غيركم ، بناسٍ إذا قاسوا ، بحارهم ، بدرّك
وإنك ، إن قبلت - فدتك نفسي - لقد حمّلتني ، أعباء شكرك[1]

* *

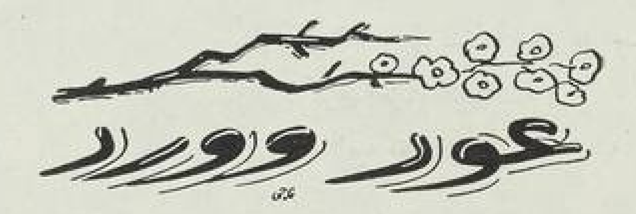
(١) إذا قبلت هديتي ؛ شكرت لك هذا القبول ، كأنك أنت المنعم المتفضل.

ما أكمله

كانت بين الأمير ومفتي دمشق مراسلات ، تدور على بحوث علمية . ومع أن كليهما كان في المدينة نفسها ، متجاورين في حي واحد ؛ ولكنهما كانا يسجلان ما يعنّ لهما ويتهاديانه . ولقد أعجب الأمير مرةً برسالة دبّجتها يراعة المفتي السيد محمود الحمزاوي فأجابه الأمير بالقصيدة التالية :

خليلي ! أتاني منك الكتاب — فللّه درّك ما أجمله ؟ !
أتاني ؛ كما أنا ، ذا ، طالب — فلا زلتَ في الوقت ، ذا ، أفضله
ولا زلتَ ، حائز قصب السباق — إلى كل فضلٍ ، علا ، نائله
تهز اليراع ، فتخشى السيوف — وتصبح ، مهزومةً ، جافلة
وما زالت السمر والمرهفات — لأقلامكم ، خدماً ، ماثلة
إذا كان فضل الغنى باللسان — فأنتم ؛ لكم ألسن ، فاضلة
وإن كان خاصته ، كاتباً — فكم ، من خواصٍ لكم ، كاملة
لئن كان ، لفظ اسمكم مفرداً — فمعناكم ؛ الجمع ما أشمله ؟ !
فلو كان بالفضل ، يرقى السماك — رقيتم ؛ وأثقلتم كاهلة
جمعت أداباً . وفضل انتساب — فناعتكم قال : ما أكمله[1] !

(١) وقع الشاعر هنا في عيب « سناد التأسيس » عن ضعف . ولا يمكن الاعتذار عنه باعتبار الـ « هـ » رويّاً . بل هي الوصل . أما الرويّ ؛ فهو الـ « ل » بدون شك .



دعي الشاعر إلى بستان في «قبا» بالحجاز قرب المدينة المنورة ؛ فهاجه منظر الماء المتدفق من ناعورة البئر على حوضه وانبجاسه بعد ذلك ساقية لطيفة تتلوى بين الشجر وذكره ببلاده فقال:

تبخّر ، بعود الطيب ، لازلت طيّباً   ورش بماء الزهر ، يا خلّ ! والورد

وما بغيتي هذا ، ولكن تفاؤلاً   بعودٍ ؛ إلى عود . وورِدٍ إلى وَردِ

***



مناجاة أُحُد

كان الشاعر في بستان مطل على جبل أحد فهاجته ذكرى الغزوة التاريخية في بدء تكون الدولة الاسلامية فقال :

تذكرت وشك البين ، قبل حلوله ... فجادت عيوني ، بالدموع ، على الخدّ

وفي القلب نيران ؛ تأجّج حرّها ... سرت في عظامي ، ثم صارت إلي جلدي

ومالي نفس تستطيع فراقهم ... فياليت قبل البين ، سارت إلى اللحد

إلى الله أشكو ، ما ألاقي من النوى ... وحملي ، ثقيل ، لاتقوم به الأيدي

بطيبة ، طاب العيش . ثم تمرّرت ... حلاوته . فالنحس ، أربى على السعد

أردّد طرفي ، بين وادي عقيقها ... وبين «قُبا»[1] ها . ثم ألوى إلى أحد

منازل من أهواه ، طفلاً ، ويافعاً ... وكهلاً ، إلى أن صرت ، بالشيب ، في برد

***

---

(١) قُبا : من الأمكنة الأثرية الأولى للمسلمين في المدينة . وفيها المسجد المشهور باسمها .

جنات دمّر

اشترى الأمير بستاناً في قرية دمّر - من أحلى مصايف دمشق - وبنى بها قصراً كان يتردّد عليه للاصطياف . وحين شعر بمرضه الأخير طلب أن ينتقل اليه.. وفيه فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها .
وصفه مرة فقال :

عُجْ بي - فديتك - في أباطح دمّر ... ذات الرياض ، الزاهرات، النضّرِ
ذات المياه الجاريات ، على الصفا[1] ... فكأنها ؛ من ماء نهر الكوثر[2]
ذات الجداول ، كالأراقم[3] جريها ... سبحانه ! من خالقٍ ، ومصوّرِ
ذات النسيم الطيّب ، العطر ، الذي ... يغنيك عن زبدٍ[4] ، ومسك أذفر[5]

---

(١) الصفا : الحجر الأملس .
(٢) نهر الكوثر : من أنهار الجنة ؛ ذكر في القرآن .
(٣) الأراقم : الحيّات .
(٤) الزبد : من انواع المسك
(٥) الأذفر : العنيف الرائحة

والطير ، في أدواحها ؛ مترنّم برخيم صوت ؛ فاق نغمة مِزهرِ
مغنىً ؛ به النساك ، يزهو حالُها ما بين أذكارٍ ، وبين تفكّر
ماشئتَ ، أن تلقى بها ، من ناسكٍ أو فاتكٍ ، في فتكه ، متطوّر
أين الرصافة[1] والسدير[2] ، وشِعب بوّانٍ[3] ... إذا أنصفتها ؛ من دمر ؟!

***

---

(١) الرصافة : مصيف هارون الرشيد قرب الرقة على نهر الفرات
(٢) السدير : قصر مشهور للملوك المناذرة في العراق
(٣) شعب بوّان: من أجمل غوطات فارس. ذكره المتنبي في قصيدة مشهورة فقال :
يقول بشعب بوّان حصاني أعَنْ هذا يسار إلى الطعان ؟!
أبوكم آدم سنّ المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان

سر الولي الأكبر

اطلع الشيخ محمد المبارك على قصيـدة الأمير في وصف دمّر فشطرها وأضاف عليها مديحا له قال :

عجْ بي - فديتك - في أباطح دمّرِ

تزهو بها طرباً بأبهى منظر

وندير صفو الأنس في ربواتها

ذات الرياض الزاهرات النّضر

ذات المياه الجاريات على الصفا

كفرائدٍ من لؤلؤٍ أو جوهر

أحلى من الضرَب المصفّى طعمه

فكأنها من ماء نهر الكوثر

ذات الجداول كالأراقم جريها

وترابها في الوصف مثل العنبر

هي جنة . مولاي أبدع صنعها

سبحانه من خالق ومصوّر

ذات النسيم الطيّب العطر الذي

ينفي جوى المضني بلطف المخبر

وبحسن نشر عبيره وأريجه

يغنيك عن زبدٍ ومسك أذفر

والطير في أدواحها مترنّم

شوقاً إلى الوطن البهيّ النيّر

كم هيّج الأشجان من أهل الهوى

برخيم صوت فاق نغمة مزهر

مغنى به النساك يزهو حالها

فتفوز فيه بكل حظٍ أوفر

أوقاتها أبداً تراها تنقضي

ما بين أذكار وبين تفكر

ماشئت أن تلقى بها من ناسك

باكٍ على تقصيره متحسّر

أو سالكٍ نهج السعادة والهدى

أو فاتك، في فتكه متطوّر

أين الرصافة والسدير وشعب بوّ

وانٍ من المغنى الزهيّ الأنور

بل ما بها من حسن أفنانٍ وألو

— وانٍ .. إذا أنصفتها ، من دُرّ

مأوى تفرّد بالمحاسن كيف لا

وبه انجلى سرّ الولي الأكبر

بدر العلا والمجد عبد القادر —

الحسني ذي الوجه الجميل الأنضر

عين الندا ، علم الهدى ، السامي ، له

روحي الفدا ، من جهبذ شهمٍ سري

مولى به روض المعارف أزهرت

فتضوّعت طيباً بعرف عبهري

منه . وطلعته التي في حسنها

انفقت كنز تجلدي وتصبّري

مَن لي بأن أحظى بها متمتعاً

طول المدى منها ببدر مسفر

أبقاه ربي للوجود وصانه

من سوء كل مروّع ومكدّر

ما ناح قمريٌ وغنّى بلبل

أو سرّ قلبي بالقبول مبشري

***

وليمة الله

فلم يكن المولى ، لأكل عصيدةٍ
دعاكم . ولا للجبن ، والخبز ، والخلّ !
ولكن ، دعاكم للحلاوة ، والشوى
وكل لذيذ ، طاب ، من أنفَس الأكل!

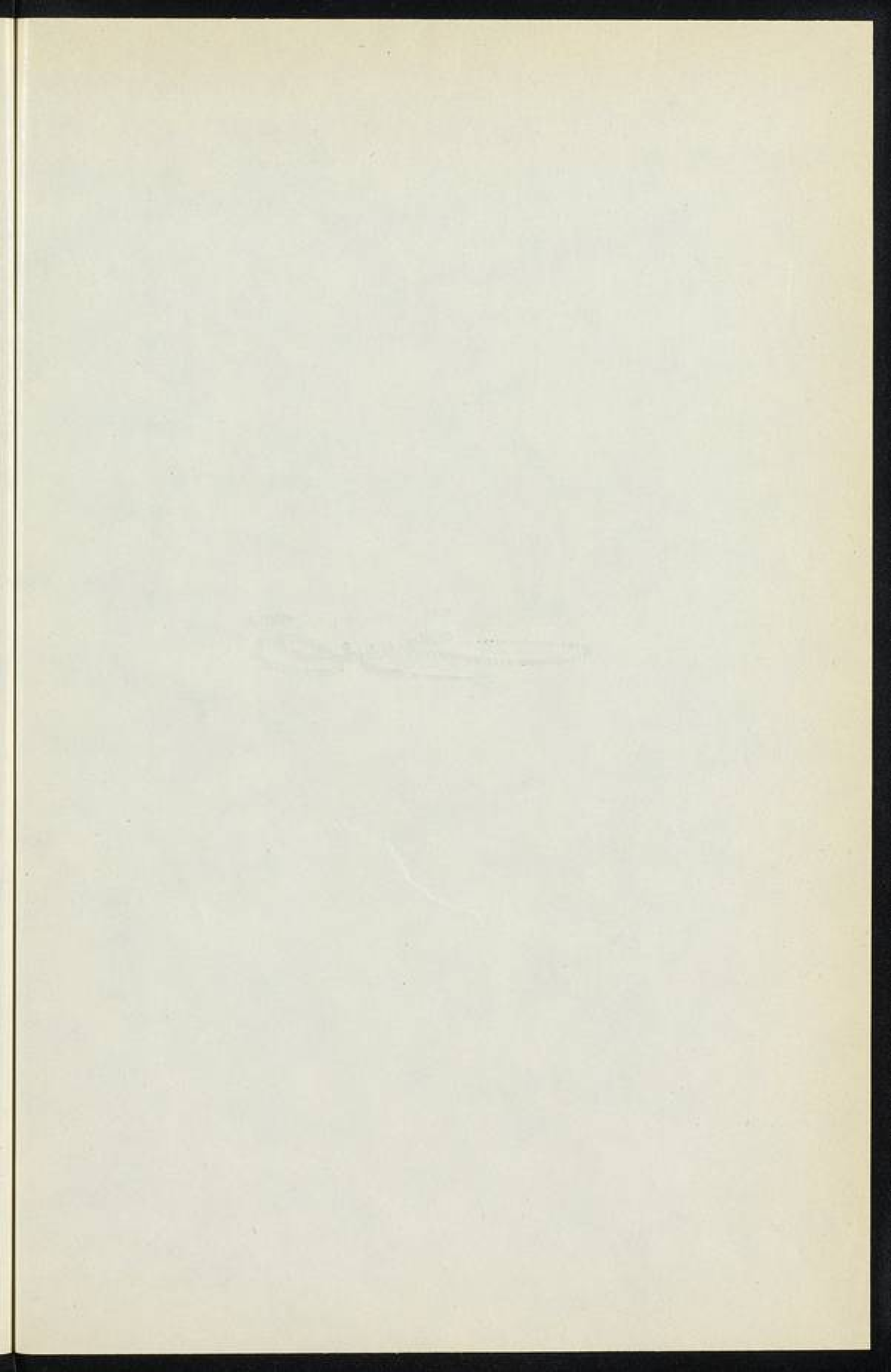
الحمد لله

الحمد لله الذي قد خصني ... بصفات كلّ الناس لا النسناس
الجود ، والعلم النفيس ، وإنني ... لأنا الصبور لدى اشتداد الباس
وتحدّثي ، شكراً لنعمة خالقي ... إذ كان في ضمني جميع الناس[1]

---

(١) وروي الشطر الثاني : « وهو الذي بي جامع للناس » ورَدَ ذلك مضمناً في قصيدة للشيخ عبد المجيد الخاني يمدح الأمير صفحة ٢٢٣ من كتاب « تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر » .


تصوف



أستاذي الصوفي

كانت في الأمير الشاعر نزعة صوفية تدفعه إلى التماس الصلات بالمتصوفين ومشايخ الطرق حينما وجد إلى الصلة بهم فرصة ، . وكتاب « المواقف » خير ما يُطلع عليه في هذا الباب . التقى وهو في الحج بالشيخ الناسك السيد محمد الفاسي مقدم الطريقة الشاذلية فتتلمذ عليه وشرب منه الطريقة . وهذا التواضع الجميل فيه ، يلاحظ في قصيدته التالية :

أمسعود[1] ! جاء السعد ، والخير ، واليسر
وولَّت جيوش النحس ، ليس لها ذكرُ

ليالي صدودٍ . وانقطاع ، وجفوةٍ ، ... وهجران سادات .. فلا ذُكِرَ الهجرُ
فأيامها ، أضحت قتاماً ، ودجنةً ... ليالي ، لا نجم ، يضيء ، ولا بدر
فراشي فيها ؛ حشوه الهمّ والضنى ... فلا التذّ لي جنبٌ . ولا التذّ لي ظهر
ليالي ، أنادي ، والفؤاد متيّم ... ونار الجوى ، تشوي . لما قد حوى الصدر
أمولاي ! طال الهجر . وانقطع الصبر ... أمولاي ! هذا الليل ، هل بعده فجر

---

(١) أمسعود ، ينادي بها نفسه ويفرح للسعادة التي نالها بتعرفه إلى أستاذه الصوفي

أغثْ ، يامغيث المستغيثين ! والمَـــاً ... ألمَّ به ، من بعد أحبابه ، الضرُّ

أسائل كلَّ الخلق . هل من مخبّر ؟ ! ... يحدثني عنكم ، فينعشني الخـــبر

إلى أن دعتني ، همَّة الشيخ ، من مدىً ... بعيدٍ .ألا ! فادنُ . فعندي،بلك الذخر

فشمّرت عن ذيلي الإطار . وطار بي ... جناح اشتياق ، ليس يخشى له كسر

وما بعدت ، عن ذا المحب ، تهـامةٌ ... ولم يثنهِ سهل ، هنـاك ، ولا وعر

إلى أن أنخنا ، بالبطاح ، ركابنـــا ... وحطَّت بهـا رحلي . وتمّ لها البشر

بطاح ؛ بهـــا البيت المعظَّم ، قبلةً ... فلا فخرَ ، إلاّ فوقه ، ذلك الفخر

بطاح ؛ بها الصيد الحلال ، محرّمٌ ... ومَن حلَّها ، حاشاه يبقّى له وِزر

أتاني ، مربّي العـارفين ، بنفسه ... ولا عجبٌ . فالشأن ، أضحى له أمر

وقال : فإني ؛ منـــذ إعداد حجة[1] ... لمنتظر لقيـاك . يا أيها البدر !

فأنت ، بُنَيّي ،مذ «ألست بربكم» ؟![2] ... وذا الوقت،حقاً،ضمّهاللوحوالسطر[3]

وجدُّك[4] ، قد أعطاك ، من قِدم لنا . ... ذخيرتكم ، فينا . ويا حبذا الذخر !

---

(١) أعداد حجة : عدد كبير من السنين

(٢) الست بربكم ؟ ! قالوا : بلى . هذه الآية مقتبسة من القرآن الكريم . ويقصد بها البعد البعيد في الزمن الأزلي القديم .

(٣) وفي هذا البيت ، تبدو نظرية وحدة الوجود بارزة ، وكان الشيخ الصوفي ومريده الأمير الشاعر يؤمنان بها ، كسائر الصوفية في القرون الوسطى

(٤) جدك : أي جدك الاعلى الرسول محمد ﷺ

فقبّلت ، من أقدامه ، وبساطه[1] وقال: لك البشرى. بذا ، قُضي الأمر
وألقى على صفري[2] ، باكسير[3] سِره

فقيل له : هـــذا ، هو الذهب التبر
وأعني به: شيخَ الأنام ، وشيخ مَن له عِمّة[4] في عذبة[5] ، وله الصّدر

---

(۱) لا تستغرب تذلل الأمير لشيخه حتى قبّل أقدامه وبساطه ؛ فالصوفي المريد يعتقد بأنه صفر أمام أستاذه الشيخ في عالم الحقيقة ، وهو عالم مخصوص ابتكره خيالهم وجعله في جوٍّ حالم وراء الطبيعة والمادة

(۲) صفرى : نحاسي

(۳) إكسير : روح المادة يعتقدون بأنها إذا مازجت النحاس ؛ انقلب إلى ذهب إبريز . وقد صرف علماء القرون الوسطى جهودهم لتحقيق هذه الفكرة ولجأوا إلى علم الكيمياء يستنجدونه . وقال ابن سينا في ذلك :

خذ الفرّار والطلقا	وشيئاً يشبه البرقا
فان أحكمتها سحقا	ملكت الغرب والشرقا

فالفرار هو الزئبق . والطلق حجر معروف . أما هذا الشيء الذي يشبه البرق فهو السر المجهول الذي جهد علم الكيمياء لمعرفته خلال قرون طويلة فأخفق . والأمير الشاعر يؤمن بهذه الفكرة إيماناً لا تردّد فيه . أما نحن فبعد اكتشاف العلماء لطريقة فلق الذرة في هذا العصر ؛ فقد أدركنا عدم استحالة تحويل المعادن من صورة إلى صورة بتحويل الالكترونات والبروتونات في ذرات المادة .

(٤) عمة : عمامة

(٥) عذبة : ذيل العمامة . وإرسال العذبة من العمامة سنّة ؛ يطلقها العلماء الكبار المعروفون في عصر الأمير الشاعر

عياذي ، ملاذي ، عمدتي ، ثم عدّتي
وكهفي ، إذا أبدى نواجذه[1] ، الدهر

غياثي ، من أيدي العداة . ومنقذي
منيري ، مجيري ، عندما غمّني الغمر

ومحيي رفاتي ، بعد أن كنتُ رِمةً
وأكسبني عمراً ، لعمري ، هو العمر

محمد الفاسي ، له من محمد
صفيّ الإله ، الحالُ ، والشيم الغُرُّ

بفرضٍ ، وتعصيبٍ[2] ، غدا أرثه له
هو البدر ، بين الأوليا ، وهم الزهر

شمائله ، تغنيك ، إن رمت شاهداً
هي الروض . لكن ، شقّ أكمامه ، القطر[3]

تضوّع[4] طيباً ، كلُّ زهرٍ بنشره
فما المسك ؟! ما الكافور ؟! ما الندّ ؟! ما العطر ؟!

---

(١) الاضمار قبل الذكر في عجز البيت ضعف تأليف لا مبرر له إلا ضعف السبك .

(٢) باستعماله الفرض والتعصيب ؛ يبدو أثر الفقه جلياً على شعره

(٣) القطر : المطر

(٤) تضوّع : انتشر ، ولا يستعمل هذا الفعل إلا لانتشار الرئحة الذكية كالطيب بأنواعه والمسك والعنبر ورائحة الزهر والعطر ...

وما حاتم ؟ قل لي . وما حلم أحنف ؟!

وما زهد ابرهيم ادهم ؟! ماالصبر[1] ؟!

صفوحٌ ، يغض الطرف ، عن كلّ زلةٍ

لهيبته ، ذلّ الغضنفر[2] ، والنمر

هشوشٌ ، بشوشٌ يلقى ،بالرحب، قاصداً

وعن مثل حبّ المزن[3] تلقاه يفترْ

فلا غضبٌ ، حاشا ، بأن يستفزه

ولا حدّة . كلا ، ولا عنده ضرْ

لنا منه صدرٌ ، ما تكدّره الدلا

ووجه طليق ، لايزايله البشرُ

ذليلٌ لأهل الفقر ، لا عن مهانةٍ

عزيزٌ ، ولا تيهٌ ،لديه ، ولا كبر

---

(١) حاتم الطائي : شاعر بدوي جاهلي ، اشتهر بكرمه حتى خلد واصبح مثلا يحتذى . أحنف أمير اشتهر بحلمه . ابراهيم ادهم أمير من امراء سوريا في القرون الوسطى ، زهد ببهارج الملك فتصوف وساح مع فقراء الصوفية كواحد منهم .

(٢) الغضنفر : الاسد .

(٣) حب المزن : ماء المطر . وقد يكون حب البرد

وما زهرة الدنيا ، بشيء له يُرى
وليس لها – يوماً – بمجلسه نشر[1]

حريصٌ على هدي الخلائق . جاهدٌ
رحيمٌ بهم . برٌّ . خبير . له القدر

كساه رسول الله ، ثوب خلافةٍ
له الحكم ، والتصريف ، والنهي ، والأمر[2]

وقيل له : إن شئتَ قل : قدمي علا
على كلّ ذي فضل ، أحاط به العصر[3]

فذلك ، فضل الله ، يؤتيه من يشا
وليس على ذي الفضل ، حصرٌ ، ولا حجر

وذا ، وأبيك ، الفخر . لا فخر ، من غدا
وقد ملك الدنيا ، وساعده النصر !

وهذا كمالٌ . كلَّ عن وصفِ كنهه[4]
فمن يدَّعي هذا ، فهذا هو السرُّ

---

(١) معنى البيت . أن الدنيا لا تغرّه بكل ما فيها من مطامع وجمال

(٢) يعتقد الصوفية ؛ أن رائدهم يسوس الكون ويتدار كه ويحميه . وفي ذلك مبالغات خيالية عجيبة ، على أنهم من جهة اخرى يعتقدون بأن كل هذه القوى الهائلة مستمدة من رسول الله ! !.

(٣) وفي هذا البيت كذلك مبالغة ليس لها حدود

(٤) اي كل الواصفون . والفاعل محذوف إيجازاً

أبو حسن[١] ، لو قــد رآه ، أحبّه

وقال له : أنت الخليفــة ، يابحر !

وما كلُّ شهم ، يدعى السبق ، صادق

إذا سيق الميدان ، بانَ له الخسر

وعند تجلي النقع[٢] ، يظهر مَن علا

على ظهر جردبلٍ[٣] . ومَن تحته ، حمر[٤]

وما كلُّ ، من يعلو الجواد ، بفارس

إذا ثار نقع الحرب ، والجوُّ مغبرُّ

فيحمي ذماراً ، يوم ، لاذو حفيظة

وكلُّ حماة الحيّ ، من خوفهم ، فرّوا

ونادى ضعيف الحيّ ، من ذا يغيثني ؟!

أما مِن غيورٍ! خانني الصبر ، والدهر

وما كلُّ سيف ، ذو الفقار[٤] ، بحدّه

ولا كلُّ كرارٍ ، علياً ، إذا كرّوا

---

(١) ابو حسن : علي بن ابي طالب

(٢) النقع : غبار الحرب

(٣) الجردبل : الفرس الأصيل

(٤) حمر : جمع حمار

(٥) ذو الفقار : سيف علي بن ابي طالب

وما كلُّ طيرٍ ، طار في الجوّ ، فاتكاً

وما كلّ صيّاحٍ ، اذا صرصر ، الصقر

وما كلّ مَن يُسمى بشيخ ، كمثـله

وما كل مَن يدعى بعمرو ، اذاً ، عمرو

وذا مَثَلٌ ، للمدّعين . ومَن يكن

على قدمٍ صَدق ، طبيباً ، له خبر

فلا شيخ ، الاّ مَن يخلّص هالكاً

غريقاً ، ينادي : قد أحاط بي المكر

ولا تسألن عن ذي المشائخ ، غير مَن

له خبرةٌ ، فاقت . وما هو مغترّ

تصفّحَ أحوال الرجال ، مجرباً

وفي كلّ مصرٍ ، بل وقطر ، له أمر

فانعم بمصرٍ ، ربّت الشيخ ، يافعـاً

وأكرم بقطرٍ ، طار منه ، له ذكر

فمكّة ذي ، خير البلاد ، فديتها

فما طاولتها الشمس - يوماً - ولا النسر

بها كعبتان : كعبة ، طاف حولها

حجيج الملا . بل ذاك ، عندهم ، الظفر

وكعبة حجّاج الجناب ، الذي سما
وجلّ . فلا ركن ، لديه ، ولا حجر

وشتّان ، ما بين الحجيجين ، عندنا !
فهذا ، له ملك . وهذا، له أجر!

عجبت لباغي السير ، للجانب الذي
تقدّس . بِمـا لا يجدُ له السير

ويلقي اليه نفسه ، بفنـائه
بصدقٍ ، تساوى عنده ؛ السرُّ والجهر

فيلقى مناخ الجود . والفضل ، واسعاً
ويلقى فراتاً ، طاب نهلاً ، فما القطر[1] ؟!

ويلقى رياضاً ، أزهرت بمعارفٍ .
فياحبذا المرأى ! وياحبـذا الزهر !

ويلقى جناناً ، فوق فردوسها العلى
وما الجنان الخلد ، ان عبّقت نشر

ويشرب كأساً صرفةً ، من مدامـةٍ
فياحبذا كأس ! وياحبـذا خمر !

---

(١) خبر « ما » محذوف إيجازاً

فلا غول فيها ، لا ، ولا عنها نزفةٌ
وليس لها بردٌ . وليس لها حرٌ
ولا هو ، بعد المزج ، أصفر فاقع
ولا هو ، قبل المزج ، قانٍ ومحمرٌ
معتّقة ، من قبل كسرى . مصونة
وما ضمّها دنٌ . ولا نالها عصر
ولا شانها زقٌ . ولا سار سائرٌ
بأجمالها . كلاّ ، ولا نالها تجر
فلو نظر الأملاك ، ختم إنائها
تخلّوا عن الأملاك ، طوعاً ، ولا قهر[1]
ولو شمّت الأعلام ، في الدرس ، ريحها
لما طاش ، عن صوب الصواب ، لها فكر
فيابعدهم عنها ! ويابئس مارضوا !
فقد صدّهم قصدٌ . وسيّرهم وِزر
هي العلم ، كلُّ العلم . والمركز ، الذي
به ، كلُّ علمٍ ، كلَّ حين ، له دور

(١) الأملاك الأولى جمع مَلِك . والثانية جمع مِلْك ، وهو ما يمتلك

فلا عالم ، الاّ خبيرٌ بشربها

ولا جاهلٌ ، الاّ جهولٌ به ، غِرْ

ولا غبنَ في الدنيا ، ولا مِن رزيئةٍ

سوى رجلٍ ، عن نيلها ، حظّه نزر

ولا خسرَ في الدنيا . ولا هو خاسرٌ

سوى والهٍ ، والكفُّ ، من كأسها صفر

إذا زمزم الحادي ، بذكر صفاتها

وصرّح ما كنى ، ونادى ، نأى الصَّبر

وقال : اسقني خمراً . وقل لي : هي الخمر

ولا تسقني سراً ، اذا أمكن الجهر

وصرّح بمن تهوى . ودعني من الكنى

فلا خير في اللذات ، من دونها سِتر[1] »

تري سائقيها ، كيف هامت عقولهم

ونازلهم بسطٌ . وخامرهم سكر

وتاهوا . فلم يدروا ، من التيه ، من همُ

وشمس الضحى ، من تحت أقدامهم ، عفر

---

(١) البيتان لأبي نواس

وقالوا: فمن يُرجى، من الكون، غيرنا ؟!
فنحن ملوك الأرض. لا البيض والحمر

تميد بهم كأس ، بهــا قد تولهوا
فليس لهم عرفٌ . وليس لهم نكر

حيارى ... فلا يدرون أين توجّهوا
فليس لهم ذكرٌ . وليس لهم فكر

فيطربهم برقٌ ، تألق ، بالحمى
ويرقصهم رعد ، بسلع ، له أزر

ويسكرهم طيب النسيم ، اذا سرى
تظنُ بهم سحراً ، وليس بهم سحر

وتبكيهم ورق الحمائم ، في الدجى
اذا ما بكت ، مَن ليس يدرى ، لها وكر

بحزنٍ ، وتلحين ، تجاوبنا بما
تذوب له الأكباد . والجلمد الصخر

وتسبيهم غزلان رامة ، ان بدت
وأحداقها بيضٌ . وقاماتهــا سمر

وفي شمها ، حقــاً ، بذلنا نفوسنا
فهان علينـا كلُّ شيء ، له قدر

وملنا عن الأوطـان ، والأهل جملةً

فلا قاصرات الطرف ، تثني ، ولا القصر

ولا عن أصيحاب الذوائب[1] من غدت

ملاعبهم منّي : الترائب والنحر

هجرنا لها الأحباب ، والصحب كلّهم

فما عاقنــا زيدٌ . ولا راقنا بكر

ولا ردّنا عنها العوادي . ولا العدا

ولا هالنا قفرٌ . ولا راعنــا بحر

وفيها حلا لي الذلُّ[2] ، من بعد عزةٍ

فياحبذا هذا ! ولو بدؤه مرُّ

وذلك ؛ من فضل الإله ، ومنّه

عليّ . فما للفضل عدٌّ ، ولا حصر

وقد أنعم الوهابُ ، فضلاً ، بشربها

فلله حمدٌ دائم ، وله الشكر

---

(١) الذوائب : ضفائر الشعر كناية عن الغادات الحسان

(٢) هذا النوع من التذلّل والتصاغر ؛ هل يجوز لغير الخالق العظيم ؟ !

فقل لملوك الأرض : أنتم وشأنكم

فقسمتكم ضئزى . وقسمتنا كثر

خذ الدنيا والأخرى ، أباغيها !! معاً

وهات لنا كأساً . فهذا لنا وفر !!

جزى الله عنّا شيخنا ، خير ماجزى

به هادياً . فالأجرُ منه ، هو الأجر

أمولاي ! إني عبد نعمائك ، التي

بها صار لي كنز . وفارقني الفقر

وصرت مليكاً ، بعد ماكنت سوقةً

وساعدني سعدٌ . فحصباؤنا ، درٌ

أمولاي ! إني عبد بابك ، واقفٌ

لفيضك محتاج . لجوداك مضطرٌ

فمرْ ، أمرَ مولى ، للعبيد . فإنني

أنا العبد ، ذاك العبد ، لا الخادم الحرٌ

هنيئاً لنا ، يامعشر الصحب ! إننا

لنا حصنُ أمن ، ليس يطرقه ذُعر

فنحن بضوء الشمس ، والغير في دجى

وأعينهم عميٌ . وآذانهم وقر

ولا غروَ في هذا ، وقد قال ربنا :

تراهم عيونٌ ، ينظرون ، ولا بصر

وغيم السما ، مهما سما ، هان أمره

فليس يرى ، إلاّ لمن ساعد ، القدر

ألا ، فاعملوا ، شكراً ، لمن جاد بالذي

هدانا . ومِن نعمائه ، عمّنا اليسر

وصلّوا ، على خير الورى . خيرِ مرسلِ

وروح هداة الخلق ، حقاً ، وهم دُرَر

عليه صلاة الله ، ماقال قائل :

أمسعود ! جاء السعد ، والخير ، واليسر

***



أيا نفس ! إن الأمرَ غيبٌ . فما تدري

بماذا يكون الكشفُ ، في آخر العمر

فإمّا بشير باللقـاء ، وبالرضى

على طول عتبٍ بالزيارة ، للزور

وإما بضدٍّ . بل ولا كان ضدٌّ ذا

تعالى إلهي ، عن عذابي ، وعن ضرّي

وليس تلافٍ . بل ولا ردٌّ فائتٍ

هناك . ولا يجدي ، سوى الجبر للكسر

أليس لهذا الخطب ـ ويحك ـ شاغلٌ

عن الأهل ، والأصحاب ؛ زيدٍ ، وعن عمرو

أياسامعَ الشكوى ! ويادافعَ البلا !

ويامنقذَ الغرقى ! ويا واسع البرّ !

تجهتُ لكم وجهي ، بأكرمِ شافعٍ

محمدٍ المبعوث ، للعبد ، والحرّ

لترسلَ لي ، عند الوفاة ، مبشراً

برضوانك الأوفى . وفوزي في الحشر

***



أوقات وصلكم ، عيـــدٌ وأفراح
يامن! همُ الرَّوح لي،والرَّوح والراحُ،[1]
يامَن ! إذا اكتحلت عيني بطلعتهم
وحقَّقت في محيَّـا الحسن ، ترتاح
دبَّت حميّاهمُ[2] ، في كل جوهرةٍ
عقل . ونفس . وأعضاء . وأرواح[3]
فما نظرت إلى شيء ، بدا ، أبداً
إلا وأحباب قلبي ، دونه لاحـوا
نظرت حسنَ الذي ، لا شيء يشبهه
فما يروقُ لقلبي ، بعدُ ، ملاّح

---

(١) الرَّوْح : الراحة . الراح : الخمرة

(٢) الحميا : الخمرة او اثرها في الجسم بعد شربها من خمار وسكر .

(٣) إما أن نقبل الاقواء في هذا البيت وهو عيبٌ. وإما ان نقدّر المترادفات خبراً لمبتدأ محذوف ، والجمل بدلاً . وهو تعليل ضعيف ..

وليس في طاقتي الرؤيا لغيرهم

ولو قلتني[1] الورى في ذاك، أو شاحوا[2]

غرقت في حبهم دهراً، ألم ترني

في بحرهم سفنٌ - حقاً - وملاح؟!

ماذا على، من رأى - يوماً - جمالهم

أن ليس تبدو له؛ شمس وإصباح

جبال مكة؛ لو شامت محاسنهم

حنوا. ومِن شوقهم؛ ناحوا، وقد صاحوا[3]

شهب الدراري، مدى الأيام، سابحة

لو أبصرتهم؛ لما جاءوا، ولا راحوا

لو كنت أعجب من شيء؛ لأعجبني

صبرُ المحبين: ما ناحوا، ولا باحوا

---

(١) قلتني : هجرتني

(٢) شاح : وأشاح، دار بوجهه عنه اجتناباً لرؤيته

(٣) استخدام التشخيص في هذا البيت والذي يليه وقيام ما لا عقل له مقام العاقل واستعمال جمع المذكر له كالانسان تماماً ... كل هذا ليس عن ضعف في التأليف أو جهل باللغه وقواعدها . بل لأن الصوفية يرون في الموجودات صفة من صفات الله تقوم بها. ويعتقدون أنها تتحدث وتعقل وتفهم وتحس وتشعر كالانسان العادي تماماً . ولذلك يخاطبونها بصيغة العاقل

أريد كتمَ الهوى ، حيناً ، فيمنعني

تهتّكي . كيف لا ؟ ! والحبُّ فضّاح

لا شيء يثني عناني ، عن محبّتهم

ولا الصوارمُ ، في صدري ، وأرماح

قال العواذلُ : فيك السحر . قلت لهم :

نعم ! ولي صحةٌ فيه ، وإصلاح

لا زال يربو ، مع الآنات ، [1] بي ، أبداً

فلي به ، بين أهل الحبّ ، أمداح

يا عاذلي ! كن عذيري ، في محبّتهم

فإنّ قلبي ، بما يهواه ، مشحاح [2]

إن الملام ، لأغراء ، وتقويةٌ

مهلاً ! فإنك مكثار ، وملحاح [3]

إني لأهجر خلاً ، لا يحدّثني

عنهم . وتحرُم ، في التوراة ، ألواح

---

(١) آنات : أزمان . وهي الأيام والليالي على التوالي

(٢) مشحاح : صيغة من صيغ المبالغة في الشح وهو البخل

(٣) ملحاح : صيغة مبالغة من الالحاح

شرعُ المحبة ، قاض ، في حكومته
بصرم خلٍ ، من الأشجان ، يرتاح

مسكين ! ما ذاق طعم العشق ، منذ بدا
ولا استفزّته ، من لقمان ، أرواح[1]

فما نديمي ، بحانِ الأنس ، غيرُ فتىً
له ، لأخبارهم ، نشر ، وإيضاح

لا كسبَ لي . بل ؛ ولا شغلٌ ولا عملٌ
ففي حديثهم ؛ تجرٌ ، وأرباح

ما جنّة الخلد ، إلا في مجالسهم
فيها ثمارٌ ، وأطيارٌ ، وأرواح

هوى المحبّ ؛ لدى المحبوب ، حيث ثوى
وكيفما راح ؛ هبّت ، منه ، أرواح

أودُّ ، طول الليالي ، أن خلوت بهم
وقد أُديرتْ أباريقٌ ، وأقداح

يروعني الصبحُ ، إن لاحتْ طلائعُه
يا ليته ! لم يكن ضوء ، وإصباح !

---

(١) روح لقمان : هو الأمونياك ، يشمّم منه المغمى عليه ليستفيق . والمعنى : أنه لم يذق طعم الهوى . ولم يصب بآلامه حتى يغمى عليه فينتعش بروح لقمان ؛ فهو مسكين جدير بالعطف عليه والرثاء له

ليلي ؛ بدا مشرقاً ، مِن حسن طلعتهم

وكلّ ذا الدهر ؛ أنوار ، وأفراح

اسكن فؤادي! وطبْ نفساً ، وقرّ ؛ لقد

بلغتَ ما رمتَ . قرّ الناسُ ، أو ساحوا

واطلب إلهك ، ما ترجو . فإنّ له

خزائناً ؛ مالها قفلٌ ، ومفتاح

***



عن الحُبّ ، مالي ، كلما رمت ، سلوانا
أرى حشو أحشائي ،من الشوق، نيرانا ؟!

لواعج[١] ، لو أن البحار جميعها
صَبَبْنَ ، لكان الحرُّ ، أضعاف ماكانا

تئج[٢] ، إذا ما نجدُ هبّ نسيمُها
وتذكو[٣] بأرواح[٤] ، تناوح[٥] ، ألوانا

فلو أن ماء الأرض ، طراً ، شربته
لما نالني ريٌّ . ولا زلت ظمآنا

---

(١) اللاعج : حرقة الحب
(٢) تئج : تتوقد وتوفر
(٣) تذكو : تتقد
(٤) أرواح : رياح
(٥) تناوح : تتلاعب بهبوبها من جهات مختلفة

وإن قلت — يوماً — قد تدانتْ ديارنا

لأسلو عنهم ؛ زادني القربُ أشجانا

فما القربُ لي شافٍ . ولا البعد نافع

وفي قربنا عشق ، دعاني هيمانا[1]

وفي بعدنا شوق ، يقطّع مهجتي

كتقطيع بيت الشعر ، للنظم ، ميزانا[2]

فيزداد شوقي ، كلما زدت قربةً

ويزداد وجدي ، كلما زدت عرفانا

فيا قلبي المجروح ، بالبعد واللقا !

دواك عزيز . لست تنفكُّ ولهانا

ويا كبدي ذوبي أسىً ، وتحرُّقاً !

ويا ناظري ! لا زلت ، بالدمع ، غرقانا

أسائل عن نفسي ، فإني ضللتها

وكان جنوني ، مثل ما قيل : أفنانا

---

(١) هيمان : عطشان

(٢) المعنى : يقطع بيت الشعر ليوزن على التفعيلات فيمتاز صحيحه من مكسورة ولكن تقطيعاته في الغالب تظهر عديمة المعنى . وهكذا تقطع قلبي من البعد حتى لم يعد له من معاني القلب إلا مقطعات لا تجدي .

أسائل من لاقيتُ عني ، والهاً

ولا أتحاشاهم : رجالاً وركبانا

أقول لهم : من ذا الذي هو جامعي

ويأخذني عبداً ، مدى الدهر ، حلوانا

وأسألُ عن نجدٍ ، وفيه مخيمي

وأطلب روض الرقمتين ، ونعمانا

منازل كانت لي : مصيفاً ومربعاً

غداة ، بها أدعى ، صبيًا ، وشيبانا

ومن عجبٍ ، ما هِمتُ إلا بمهجتي

ولا عشقت نفسي سواها ، وما كانا

أنا الحِبُّ والمحبوب والحُبُّ جملةً

أنا العاشق المعشوق ، سراً وإعلانا

* *

الناعورة العاشقة

قام الأمير برحلة في سوريا زار خلالها حمص ودير سمعان ، حيث زار قبر خالد بن الوليد وعمر بن العزيز. ثم عاد إلى حماه فأقيمت له المآدب الفخمة دعي اليها عدد عظيم من الاكابر ، واستقبله السكان استقبال الملوك حيثما حلّ . وقد استوقف نظره في إحدى المآدب ناعورة تنوح وتدمع فأنشأ الأبيات التالية شبه ارتجال وكان ذلك عام ١٢٧٧هـ ١٨٨٢ م

وناعورة ، ناشدتُها عن حنينهـــا

حنينَ الحوار ، والدمـــوعُ تسيلُ

فقالتْ ، وأبـدت عذرهـا بمقالهـــا

وللصدق آيات ، عليه دليـــل !

ألست تراني ، ألقمُ الثديَ لحظةً !

وأُدفَع عنه ، والبلاء طويلُ

وحالي ؛ كحال العشق ، بات محالفاً

يدور بدارِ الحبّ ؛ وهو ذليل

يطاطيء ، حزناً ، رأسه بتذلّلِ

ويرفع أخرى ؛ والعويل عويل

***

أي وادٍ صبحوا ؟!

ليتهم ، إذ ملكوني ، أسجحوا !
ليتهم إذ ما عفوا ، أن يصفحوا !

رحلوا العيس ، ولم أشعر بهم
ليت شعري أيّ وادٍ صبّحوا ؟!

أخذوا قلبي وماذا ضرّهم
أن يكونوا ، بجميعي، جنحوا؟!

أي عيشٍ ، يهنا لي ، من بعدهم ؟!
طار قلبي ، وعظامي ملّحوا

ويح أهل العشق ، هذا حظُّهم
هلكى! مهما كتموا أو صرّحوا

وحدة الوجود

أنا حقٌّ ، أنا خالقٌ
أنا ربٌّ ، أنا عبدُ

أنا عرشٌ ، أنا فرشٌ
وجحيمٌ ، أنا خلد

أنا ماءٌ ، أنا نارٌ
وهواءٌ ، أنا صلد

أنا كمٌّ ، أنا كيفٌ
أنا وجدٌ ، انا فقد

أنا ذاتٌ ، أنا وصفٌ
أنا قُربٌ ، أنا بعد

كل كونٍ ، ذاك كوني
أنا وحدي ، أنا فرد

هو الباطن والظاهر

نظم هذه المقطوعة في حال غيبوبة صوفية فجاءت مختلة الوزن والقوافي ؛ وفيها كثير من الزحاف والضرائر ؛ لو كان صاحياً وكلف نفسه مشقة النظر فيها دقائق ؛ لخلت من كل ما ترى . وقد تركتها كما هي لأمانة النقل ولتصوير الشاعر في حال شطحاته الصوفية وغيبوبته عن الوجود إلى اللاوجود

أردّدُ طرفي ، في الرسوم ، فلا أرى
سوى ؛ من به كانت : رسوماً وآثارا
وأسألها عنه ، فكلٌ أجابني
بأنه ما رآه يوماً ، ولا أدري
فقلت لهم : هذا عجيب ! فإنني
ما أبصرته ، إلا بكم متظاهرا
عرفته منكم . ثم زاد في عرفاننا
بأني إياه . ولكن منكرا

عجبت له ، كيف اختفى بظهوره !؟

فعيني حجابه الظهور ، ولا انفرا

ألا فاعجبوا ، من ظاهرٍ في بطونه

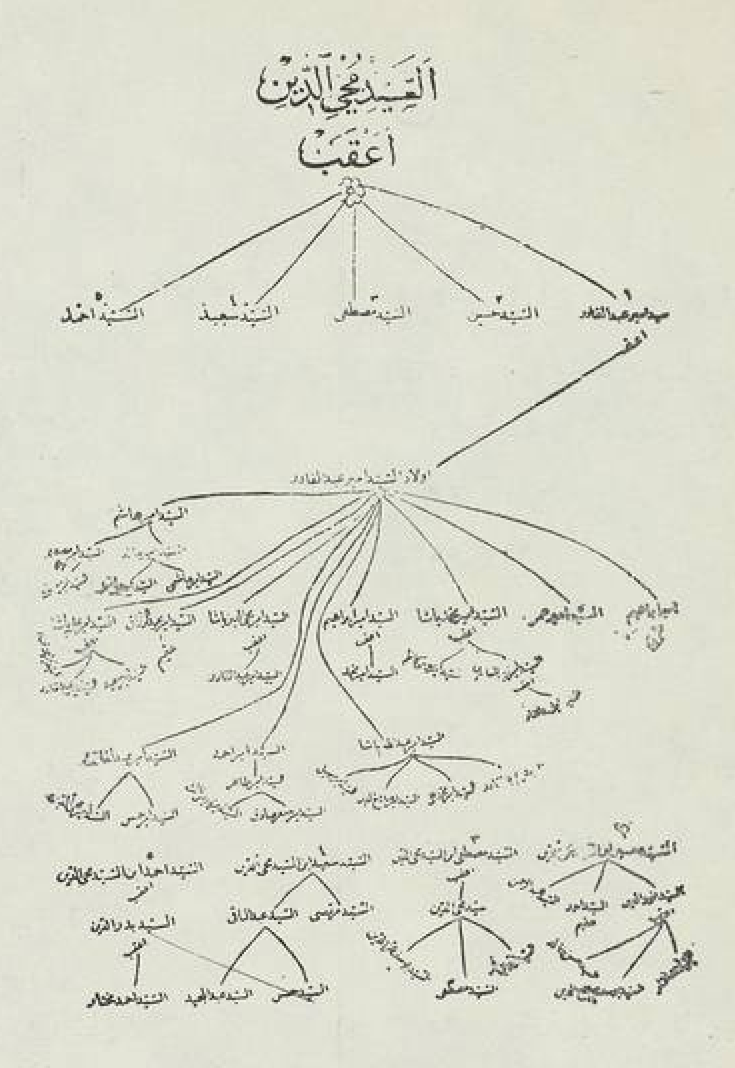
ومن باطن ، لا زال بادٍ وظاهرا

كما كنت

هن إذا ساعدك الدهـــر فذو العقل يهون

فإذا حطَّكَ دهرٌ فكما كنت تكون

★★★



اعقاب الأمير عبد القادر الجزائري حتى يوم طبع الديوان

الفهرس

تابع الفهرس

فهرست ابواب الديوان

فهرست الصور

[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

تقديم

الدكتور ممدوح حقي

قال الدكتور أحمد أمين ، عميد كلية الآداب بمصر : ممدوح حقي ، مجموعة مختارة من الذكاء الحاد والنشاط والألمعية . عميق الفهم ، غزير المادة ، علمه أدب ، وأدبه شعر ، وشعره موسيقا .

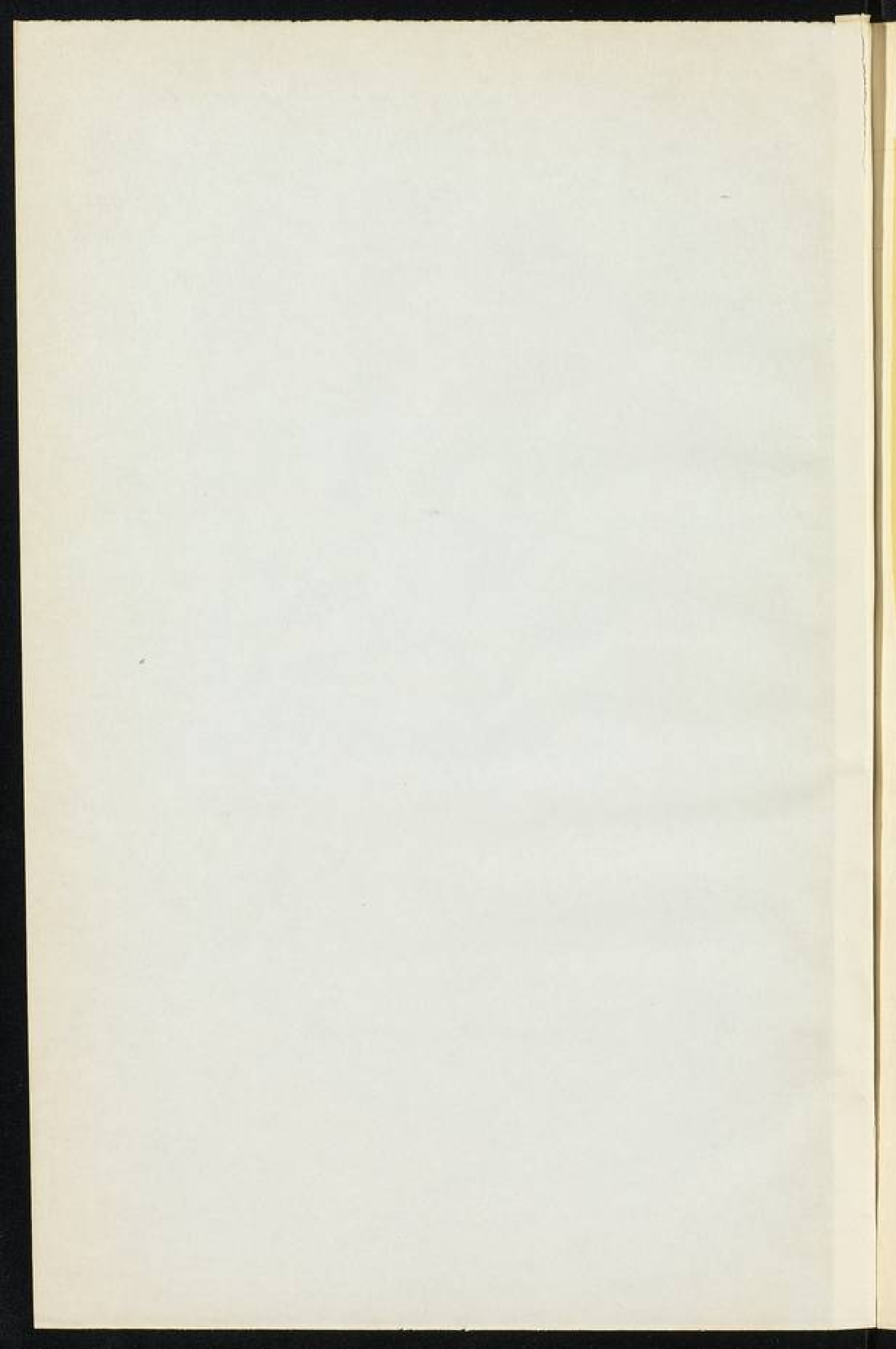
وقال ج . غوردون ، استاذ الأدب في برنغهام : لم أفهم أسرار الثقافة الاسلامية وسمو الدور الذي لعبته في تطور الحضارة الانسانية إلا من ممدوح حقي . ولو أتيح لهذا الأديب العالم أن ينشر في لغة أوروبية ، لكان في عداد الخالدين ...

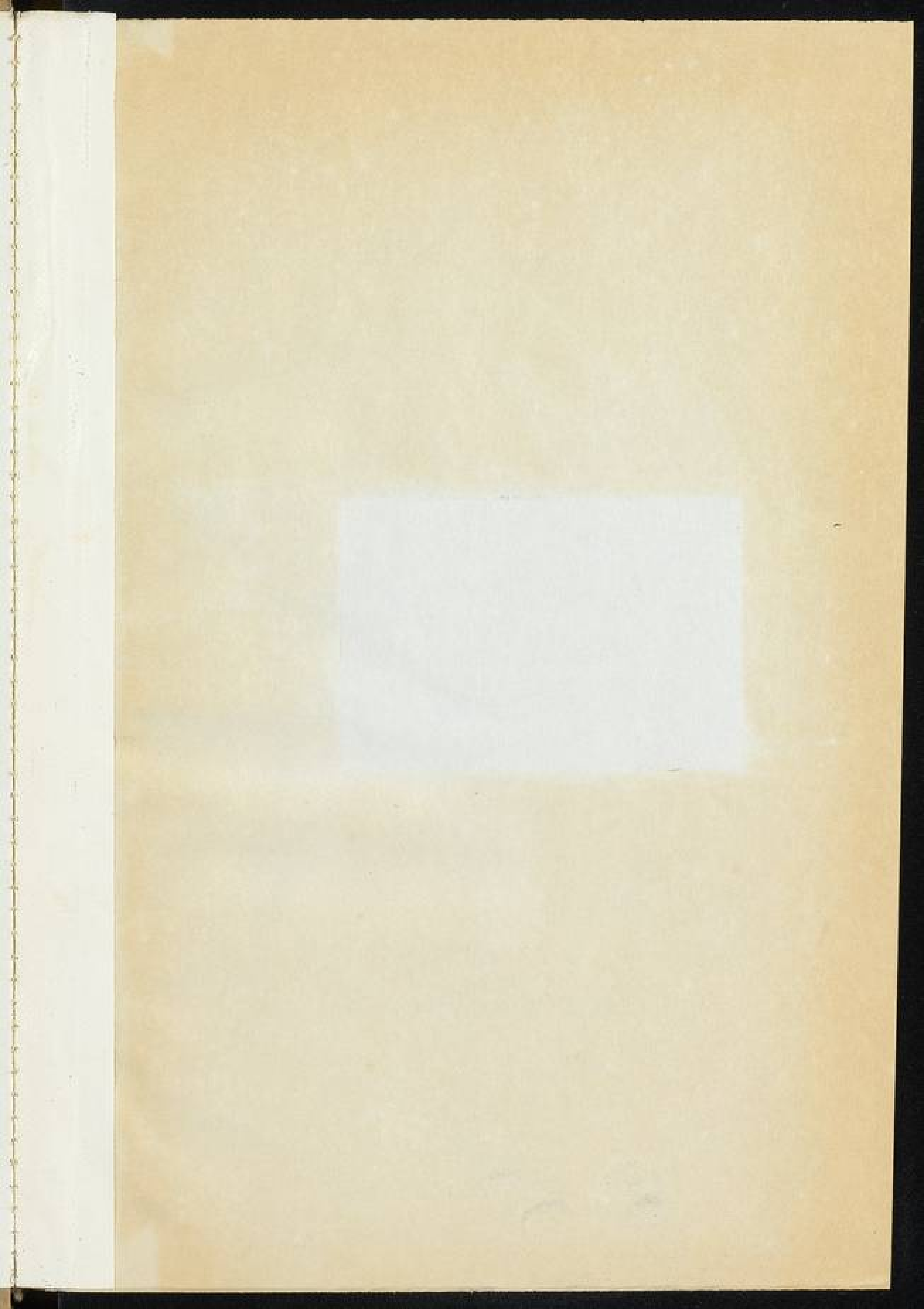
ونحن نعرف من مزايا أديبنا العالم ممدوح حقي وأريحيته مايعرفه قراؤنا معنا ، فقد أنافت مؤلفاته القيمة على الثلاثين وهو شاب . ولبعضها قيمة عالمية ككتاب الكشاف ، وقاموس الحقوق

نال الشهادات الجامعية العليا في الأدب والحقوق والفلسفة وهو موظف يعمل ويكدّ للحياة بلا ملل . . وقد اختير مستشاراً للمعارف في ليبيا فخدم في نهضتها وتقدمها العلمي . وعين مديراً لمكتب الأنباء في قصر الملك ... كما اختير إلى مناصب ديلوماسية رفيعة . ودرّس الأدب والحقوق في مصر وسورية ، وترك فيها آثاراً علميةمشهودة.. أسلوبه ، مبسّط ، سهل ، ممتنع . قال عنه بعض كبار الأدباء: إنه يختار التركيب الذي يريد ، للمعنى الذي يريد بسرعة مذهلة ، سواء أكتب أو خطب أو تحدث . . .

دار اليقظة العربية

مطبعة دمشق – ١٠٦١٦






Princeton University Library
32101 073831735